شرح حديث
شداد بن أوس رضي الله عنه
«إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر»

دار اللباب

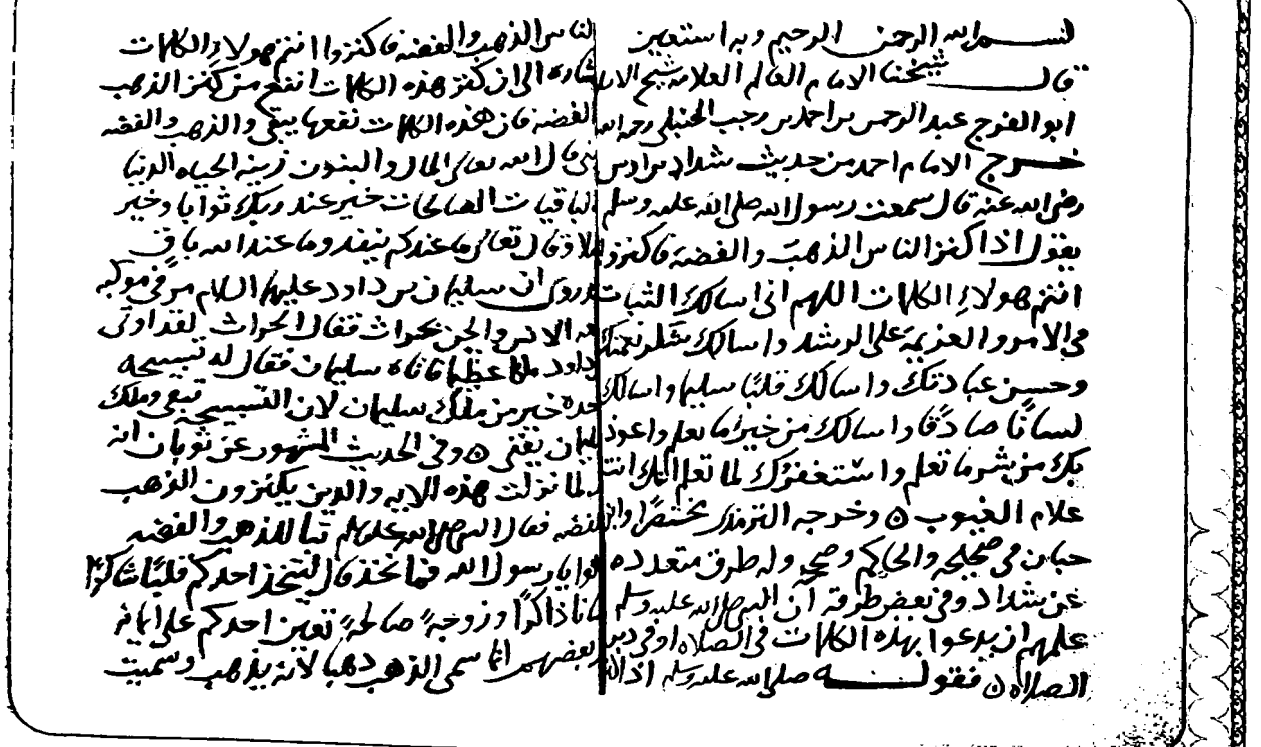

المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة (م)

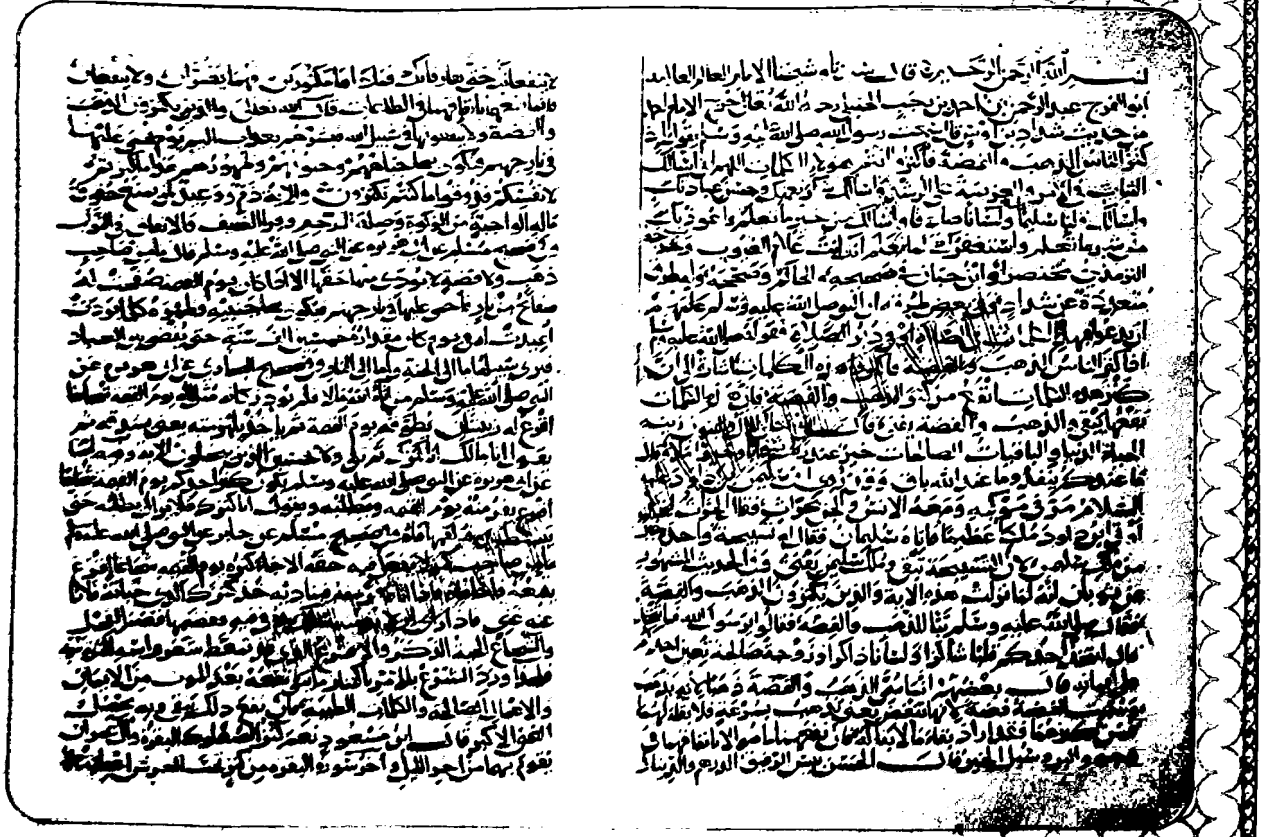

دار الكتب الوطنية بتونس (ت)

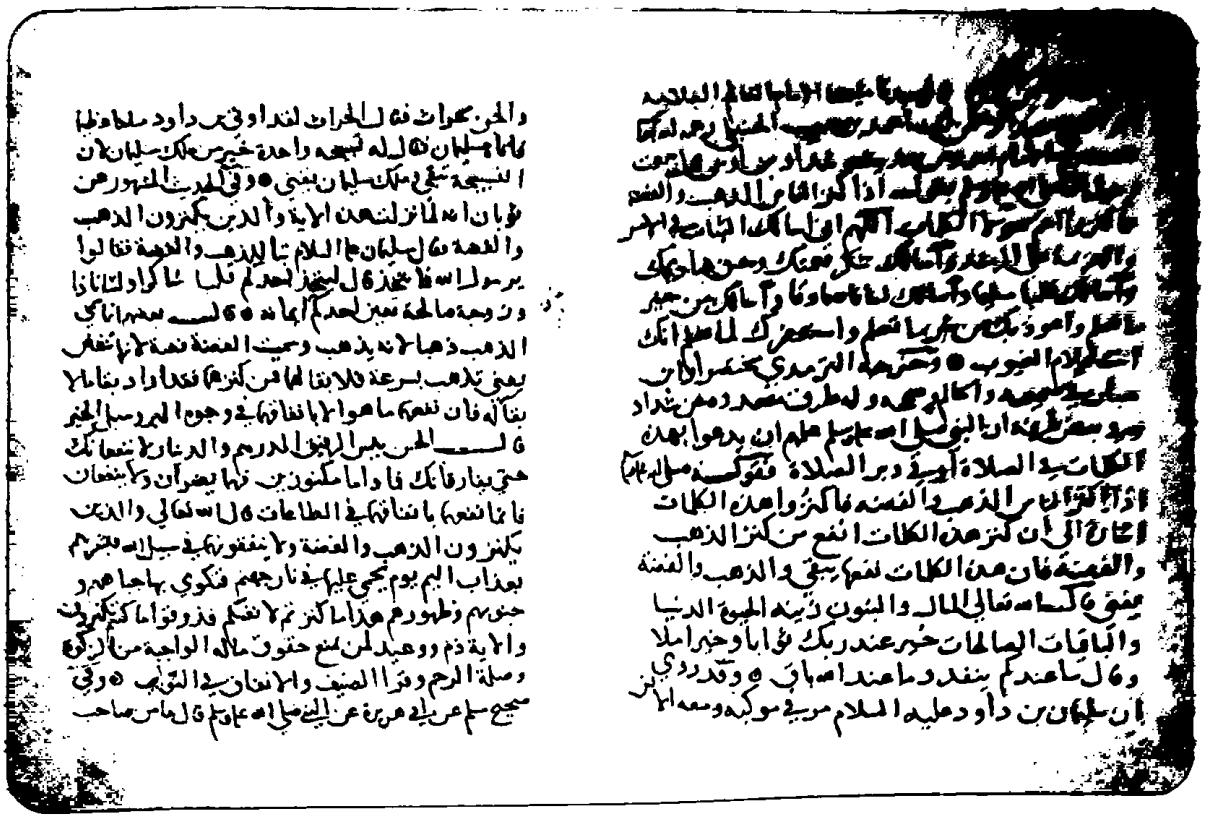

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

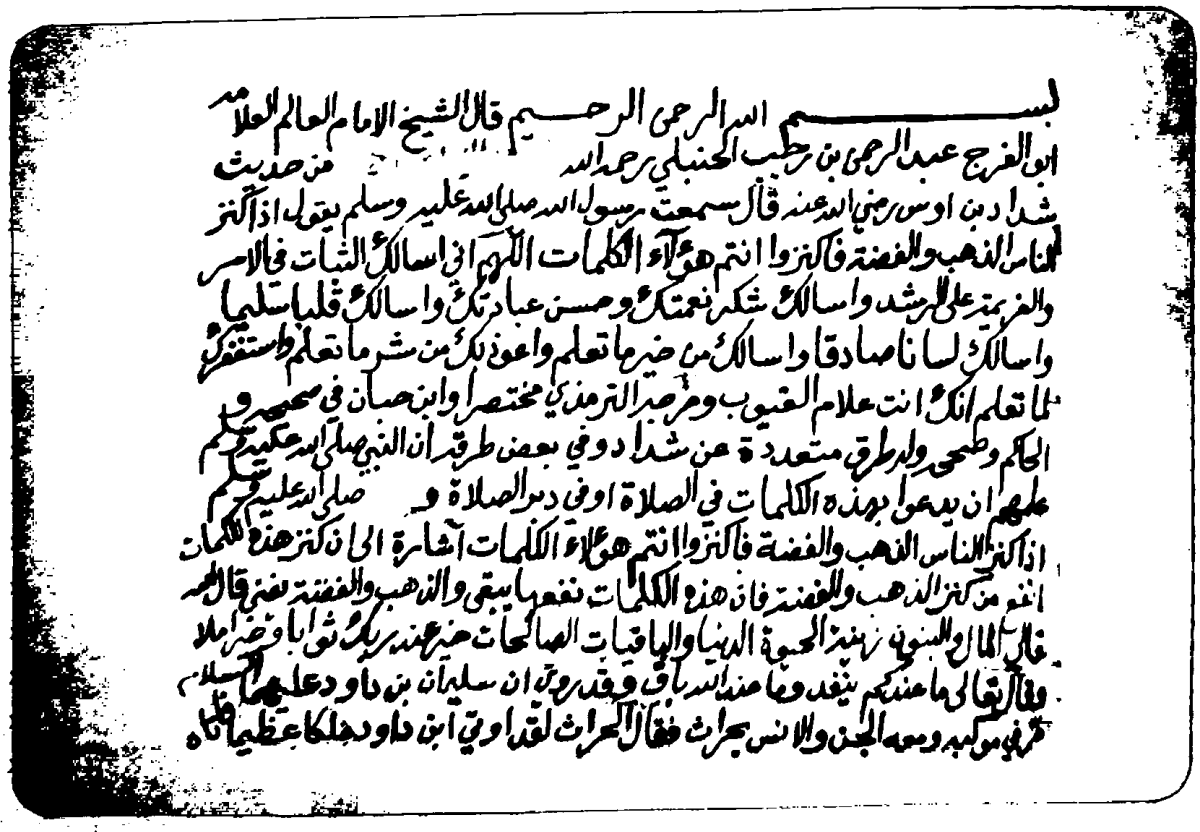

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله عالم الغيب والشهادة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الهادي إلى سبيل السعادة، وعلى صحبه الأبرار وآله السادة، ومن تبعهم في سبيل الحسنى وزيادة.

أما بعد:

فإن تجاذب الإنسان بين الماديات وصورها، وبين المعاني وحقائقها، هو مجاهدته الكبرى في هذه الحياة، والإيمان بالغيب هو الفيصل الفارق في تلك المعركة.

فمن آمن بالله واليوم الآخر حقاً ترجحت لديه المعاني وحقائقها الباقية على المادة الزائلة الفانية.

ومن ضعف إيمانه بالله واليوم الآخر تلاطمت به الأمواج بين مد وجزر في ذلك على قدر ضعفه.

ومن انعدم إيمانه بالغيب، لم يؤمن إلا بالمحسوس الملموس، فلم يعش إلا حياة مادية صرفة، ليس فيها أي معنى.

في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ الذي شرحه الحافظ ابن رجب رحمه الله في هذه الرسالة إرشاد نبوي كريم إلى الالتفات عن الدنيا بذهبها وفضتها نحو حقيقة هذه الحياة الدنيا، التي هي ممر عبور لا دار قرار.

فالعاقل من تزود منها ما ينفعه في آخرته، ولم ينشغل عن ذلك بجمع حطامها من زينتها وزخرفها.

١ ـ وذلك بالثبات على الإيمان والطاعة.

٢ ـ والعزيمة على ذلك ابتداءً واستمراراً.

٣ ـ وشكر الله تعالى على نعمه.

٤ ـ وأداء حقها من حسن العبادة له والإقبال عليه.

٥ ـ مع سلامة القلب.

٦ـ وصدق اللسان.

٧ـ وكل هذا مفتقر إلى عون الله تعالى وفضله وتوفيقه، لذلك لا بد من سؤاله سبحانه الخير.

٨ ـ مع الاستعاذة مما ينافي في ذلك من كل شر.

٩ ـ والاستغفار مما تزل به الأقدام، فإن الإنسان ضعيف.

١٠ ـ وذلك كله مع معرفة صفاته سبحانه، والثناء بها عليه.

تلك عشرة كاملة، ولَعمر الحق إنها تذكرة تجمع الدين كله، لا تقوَّم بذهب الأرض وفضتها، جاءت في هذه الوصية النبوية الشريفة التي ينبغي أن تكون للمسلم ورداً يومياً من الذكر والدعاء باللسان، والتذكر والعمل بهذا المنهاج النبوي في الحياة ليستقيم أمره ولا تزل به قدمه.

أعِنّا اللهم على قولها والعمل بها في كل يوم من عمرنا، آمين.

* * *

اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على أربع نسخ خطية:

١ـ نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ورمزها (م) وهي الرسالة السادسة من المجموع رقم (١٧٤٢) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ، وهي في (٢١) لوحة (من ١١٨/ أ إلى ١٣٨/ أ). وهي مخرومة في آخرها مقدار ورقة.

بخط أحمد بن محمد بن خضر القطان النجاد، وتاريخ كتابة المجموع ٨٣٦هـ

٢ـ النسخة التونسية، ورمزها (ت).

وهي الرسالة الثانية عشرة من المجموع رقم (١٥٧) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ، وهي في (١١) لوحة (من ١٢٣/ ب إلى ١٣٣ب).

لم يذكر اسم الناسخ، والمجموع قد كتب قبل ٨٥٢.

وبآخرها: «بلغ مقابلة بحمد الله تعالى وعونه».

٣ـ نسخة مكتبة الفاتح باصطنبول، ورمزها (ف).

وهي الرسالة السادسة من المجموع رقم (٥٣١٨) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ وهي في (١٧) لوحة (من ١٠٥/ أ إلى ١٢١/ أ).

وناسخها: عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي.

وتاريخ انتهاء نسخ المجموع ٨٩٣.

٤ـ نسخة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود، ورمزها (س).

وهي الرسالة السادسة من المجموع (١٦٣٧) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ، وهي في (١٦) صفحة (من ٢٦٥ إلى ٢٨٠).

وناسخها: عبد الله بن إبراهيم بن محمد الربيعي وتاريخ الانتهاء من نسخها: ٢٢ محرم ١٣٣٤هـ.

٥ ـ ويوجد لهذه الرسالة مختصر ملخص، في مكتبة رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة ضمن المجموع (٢٣٤٥) في (٣) صفحات.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

قال سيِّدُنا وشيخُنا الإمامُ العالمُ العَلَّامةُ أبو الفرجِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أحمدَ بنِ رَجَبٍ الحنبليُّ رحمه اللهُ تعالى[1]:

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ مِن حديثِ شدَّادِ بنِ أوسٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إذا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهبَ والفِضَّةَ فاكنِزوا أنتم هؤلاء الكَلِماتِ: اللهمَّ إني أسألُكَ الثَّباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرُّشدِ، وأسألُكَ شُكْرَ نعمَتِك، وحُسْنَ عِبادتِك، وأسألُك قلباً سليماً، وأسألُكَ لساناً صادقاً، وأسألُكَ مِن خيرِ ما تعلَمُ، وأعوذُ بك مِن شرِّ ما تعلَمُ، وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ إنَّك أنت علَّامُ الغُيوب**»[2].

وخرَّجَه التِّرمذيُّ مُختصَراً، وابنُ حِبَّانَ في «صحيحه»، والحاكمُ وصحَّحَه، وله طرقٌ مُتعدِّدةٌ عن شدَّادٍ[3].

---

(١) من (ت) و(ف) ونحوه في (م)، وفي (س): «الكلام على حديث شداد بن أوس، بسم الله الرحمن الرحيم، قال الشيخ الإمام العالم العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧١١٤).

(٣) رُوي عن شداد رضي الله عنه من أوجه، أشهرها:

١ـ ما رواه الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن شداد. هكذا رواه عامة أصحاب الأوزاعي مرسلاً بين حسان وشداد.

أخرجه كذلك من طرق عن الأوزاعي: ابن المبارك في «الزهد» (٨٤٣) بطرفه فحسب دون المرفوع، وأبو بكر بن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٩٧١)، وأحمد في «مسنده» (١٧١١٤)، والخرائطي في =

= «فضيلة الشكر لله» (٥)، وأبو شعيب الحراني في «فوائد منتقاة» (٤٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٦٦) (٦/ ٧٧ ـ ٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٤١١ ـ ٤١٢) (٧٣/ ١٥١).

وجوَّده عن الأوزاعي: سويد بن عبد العزيز، فرواه عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن أبي عبيد الله مسلم بن مشكم، عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

أخرجه من طريقه: ابن حبان (٩٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٧١٥٧) وفي «الدعاء» (٦٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٣/ ١٥٠).

٢ـ وما رواه أبو مسعود الجريري، عن أبي العلاء بن الشخير. واختلف فيه الرواة عن أبي مسعود في إسناده. وليس في متنه ذكر الكنز، وإنما الدعاء فحسب.

فرواه يزيد بن هارون وسفيان وخالد بن عبد الله، فقالوا: عن أبي العلاء، عن الحنظلي، عن شداد أخرجه أحمد (١٧١٣٣)، والترمذي (٣٤٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٧١٧٥) (٧١٧٦) (٧١٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٥).

ورواه عدي بن الفضل وهلال بن حق، فقالا: عن أبي العلاء، عن رجلين، عن شداد. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٧٩)، وفي (الدعاء) (٦٢٦)، والداني في «كتاب في علوم الحديث» (٢٥).

ورواه بشر بن المفضل، فقال: عن أبي العلاء، عن رجل من مجاشع، عن شداد. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٧٨). وفي «الدعاء» (٦٢٨ ـ ٦٢٩). وينظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٢/ ٤١٢).

ورواه حماد بن سلمة، فقال: عن أبي العلاء، عن شداد. منقطعاً. أخرجه النسائي (١٣٠٤) والطبراني في «الكبير» (٧١٨٠).

٣ـ ورواه أبو الأشعث الصنعاني عن شداد، وفيه ذكر الكنز. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٣٥) وفي «الدعاء» (٦٣١)، وأبو الحسين الكلابي في «أحاديثه» (١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

٤ ـ وشداد بن عبد الله أبو عمار، عن شداد. وليس فيه ذكر الكنز. أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٣٢٣)، والحاكم (١/ ٥٠٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

٥ ـ محمد بن عبد الله الشعيثي، عن شداد. وليس فيه ذكر الكنز. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٧). =

وفي بعضِ طُرُقِه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمَهم أن يدعوا بهذه الكلماتِ في الصَّلاةِ أو في دُبرِ الصَّلاةِ[١].

* * *

فقولُه ﷺ: «إذا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهبَ والفضَّةَ فاكنِزوا أنتم هؤلاء[٢] الكلماتِ» إشارةٌ إلى أنَّ كنزَ هذه الكلماتِ أنفَعُ مِن كنزِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ؛ فإنَّ هذه الكلماتِ نَفْعُها يبقى، والذَّهبُ والفضَّةُ يفنى، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

= ٦ ـ بشير بن كعب العدوي، عن شداد. وفيه ذكر الكنز. أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٦٣٢).

٧ ـ ثابت البناني، عن شداد بأول القصة دون ذكر الكنز والدعاء. أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٤١٢).

٨ ـ سليمان بن موسى، عن شداد. موقوفاً وليس فيه ذكر الكنز. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

وهذه الأوجه تعتضد ببعضها. ومثلها لا يُرَدُّ في هذا الباب، فلا يضر ما في بعضها من انقطاع أو جهالة والحديث ثابت.

* **تنبيه:** روى موسى بن مطير، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً نحو هذا الحديث ولفظه: «إذا رأيت الناس قد تنافسوا... الحديث. أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٧٢) و«الأوسط» (٧٤٠٨) و«الدعاء» (٦٣٣)، وعنه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٤٥٣)، و«معرفة الصحابة» (١١٦٧). وأخرجه أيضاً أبو طاهر السِّلفي في «السابع والعشرون من المشيخة البغدادية». موسى بن مطير: متروك فلا يُعد هذا شاهداً لحديث شدّاد، ولعل موسى سرقه! والله أعلم.

(١) وهي الطرق التي رويت عن الجريري عن أبي العلاء بن الشخير.

ومنها ما أخرجه أحمد (١٧١٣٣)، والنسائي (١٣٠٤).

(٢) في (ت) و(ف): «هذه».

وقد رُوِيَ أنَّ سُليمانَ بنَ داودَ عليهما السَّلامُ مرَّ في موكبِه ومعه الإنسُ والجنُّ بحَرَّاثٍ، فقال الحرَّاثُ: لقد أوتي ابنُ داودَ مُلْكاً عظيماً، فأتاه سليمانُ فقالَ له: تسبيحةٌ واحدةٌ خيرٌ مِن مُلْكِ سليمانَ[1]؛ لأنَّ التَّسبيحةَ تبقى ومُلْكُ سليمانَ يفنى.

وفي الحديثِ المشهورِ عن ثوبانَ أنَّه قال: لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] فقال النبي ﷺ[2]: «تبًّا للذَّهبِ والفِضَّةِ»، فقالوا: يا رسولَ اللهِ! فما نتَّخِذُ؟ قال: «ليَتَّخِذْ أحدُكُم قَلْباً شاكراً، ولِساناً ذاكراً، وزوجةً صالحةً تُعِينُ أحدَكُم على إيمانِه»[3].

قال بعضُهم: إنَّما سُمِّيَ الذَّهَبُ ذَهَباً لأنَّه يذهَبُ، وسُمِّيَت الفِضَّةُ فِضَّةً لأنَّها تنفضُّ[4]، يعني: تذهَبُ بسُرعةٍ فلا بقاءَ لهما، فمَنْ كَنَزهما فقد أراد بقاءَ ما لا بقاءَ له؛ فإنَّ نفعَهُما ما هو إلا بإنفاقِهما في وجوهِ البرِّ وسُبُلِ الخيرِ.

قال الحسنُ: بئس الرَّفيقُ الدِّرهمُ والدِّينارُ، لا ينفعانِكَ حتَّى يُفارقانِك[5]. فما داما مَكْنوزَيْنِ فهما[6] يضرَّانِ ولا ينفعانِ، وإنّما[7] نفعُهما بإنفاقِهما في الطَّاعاتِ.

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (٢١٠) بنحوه.

(٢) سبق نظر ناسخ (ف) فكتب: «سليمان عليه السلام»!

(٣) هذا اللفظ الذي ساقه المصنف: فيه إدراج من ألفاظ رواياته المتعددة. أخرجه الإمام أحمد (٢٢٣٩٢) (٢٢٤٣٧)، والترمذي (٣٠٩٤) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (١٨٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٢٨). والطبراني في «الصغير» و«الأوسط».

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (٨/ ١١٥) تفسير الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٥).

(٦) في (س) و(م): «فما».

(٧) في (ت) و(ف): «فإنما».

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥] والآيةُ ذَمٌّ ووعيدٌ لِمَن يمنَعُ حُقوقَ مالِه الواجبةَ من الزَّكاةِ، وصلةِ الرَّحِمِ، وقِرَى[١] الضَّيفِ، والإنفاقِ في النَّوائبِ.

وفي «صحيح مسلمٍ»، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فضَّةٍ لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحتْ له صَفائحُ مِن نارٍ فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهْرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعيدَت له في يومٍ كان مِقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقضى بين العِبادِ، فيَرى سبيلَه إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ»[٢].

وفي «صحيح البخاريِّ»، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَن آتاه اللهُ مالاً فلم يُؤدِّ زكاتَه، مُثِّلَ مالُه يومَ القيامةِ شُجاعاً أقرعَ، له زبيبتانِ، يُطوَّقُه يومَ القيامةِ، ثمَّ يأخذُ بلِهْزمَيْه ـ يعني بشِدْقيه[٣] ـ ثمَّ يقولُ: أنا مالُك، أنا كنزُكَ»، ثمَّ تلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤] [آل عمران: ١٨٠] الآية.

وفيه أيضاً، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يكون كنزُ أحدِكُم يومَ القيامةِ

---

(١) في (س): «وإقراء».

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٣) في (ت) و(ف): «بلهزمته يعني بشدقه».

(٤) أخرجه البخاري (١٤٠٣) (٤٥٦٥) والآية مضبوطة على قراءة حمزة.

شُجاعاً أقرعَ، يَفِرُّ منه يومَ القيامةِ، ويطلبُه ويقولُ: أنا كنزُكَ، فلن[١] يزالَ يطلبُه حتَّى يبسطَ يدَه فيُلقمَها فاه»[٢].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابرٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِن صاحبِ كنزٍ لا يَفعَلُ فيه حقَّهُ إلَّا جاء كنزُه يومَ القِيامةِ شُجاعاً أقرعَ يتبَعُه فاتحاً فاه، فإذا أتاه فرَّ منه، فيُناديه: خُذْ كنزَكَ الذي خبأتَهُ، فأنا عنه غَنِيٌّ، فإذا رأى أن لا بدَّ منه سلكَ يدَهُ في فيه فقضَمَها قَضْمَ الفَحْلِ»[٣].

والشُّجاعُ: الحيَّةُ الذَّكرُ، والأقرَعُ: الذي قد تمعَّطَ شعرُ فروةِ رأسِه لكثرةِ سُمِّهِ.

فلهذا وردَ الشَّرعُ بالأمرِ باكتنازِ ما يبقى نفعُه بعد الموتِ مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ والكلماتِ الطَّيِّبةِ، فإنَّ نفع ذلك يبقى، وبه يَحصلُ الغِنى الأكبرُ.

قال ابنُ مَسعودٍ: نِعْمَ كنزُ الصُّعلوكِ: البقرةُ وآلُ عِمرانَ، يقومُ بهما مِن آخرِ الليلِ[٤].

وآخرُ سورةِ البقرةِ مِن كنزٍ تحت العرشِ أُعطِيَتْهُ هذه الأمَّةُ[٥]، مع سورةِ الفاتحةِ[٦].

---

(١) في (ت) و(ف) ونسخة بحاشية (س): «فلا».

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٧). وفيه: «يفر منه صاحبه ويطلبه».

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٨).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠١٥)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٣٨)، والدارمي (٣٤٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٧٧) وليس عندهم ذكر سورة البقرة، وأخرجه المستغفري في «فضائل القرآن» (٧٠٥) بمثل ما أورده المصنف.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٣٤٣) (٢١٥٦٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) روي عن معقل بن يسار مرفوعاً: أخرجه الحاكم (١/ ٥٥٩).

ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ[١] كنزٌ مِن كُنوزِ الجنَّةِ[٢].

وفي بعضِ الآثارِ[٣] الإسرائيليَّةِ: كنزُ المؤمِنُ ربُّهُ[٤].

يعني أنَّه لا يَكنِزُ سوى طاعتِه، وخَشْيتِه ومَحبَّتِه، والتَّقرُّبِ إليه، فمَنْ كان كنزُه ربَّه وجدَه وقتَ حاجَتِه إليه، كما في وصيَّةِ النَّبيِّ ﷺ لابنِ عبَّاسٍ: «احفَظِ اللهَ يَحْفظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أمامك، تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ»[٥].

أنـــتَ كَنْـــزِي أنـــتَ ذُخْرِي ... أنـــتَ عِـــزِّي أنـــتَ فَخْـــرِي

كيـــفَ أَخْشَـــى الفَقْـــرَ إِذْ مـــا ... كُنْـــتَ أَمْنِـــي عنـــدَ فَقْـــرِي[٦]

مَن كانَ اللهُ كنزَهُ فقد ظَفِرَ بالغنى الأكبَرِ.

قال بعضُ العارفين: مَنِ استَغْنى باللهِ أَمِنَ مِنَ العَدَمِ، ومَنْ لزمَ البابَ أُثْبِتَ في الخَدَمِ، ومَن أكثرَ ذِكرَ الموتِ أكثرَ مِن النَّدَمِ[٧].

تـــنـــقـــضـــي الدُّنيـــا وتَفْنى ... والـفـتـــى فيـهـــا مُعَنَّـــى

ليـــس فـــي الدُّنيـــا نَعيـــمٌ ... لا ولا عَـيْـــشٌ مُـهَـــنَّا

---

(١) في (ت) و(ف): «بالله العلي العظيم».

(٢) روي عن عدد من الصحابة، منهم: أبو موسى رضي الله عنه عند البخاري (٦٣٨٤).

(٣) في (ف): «الآيات».

(٤) انظر: «الفردوس» للديلمي (٤٨٩٥)، وتفسير الآلوسي (سورة الذاريات، الآيات ٥٤ ـ ٦٠).

(٥) قد أفرد المصنف رحمه الله هذا الحديث الشريف بالشرح في رسالة مفردة.

والحديث أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وغيره.

(٦) لم أجده لغير المصنف رحمه الله.

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٣٠١) وهو مما سمعه أبو صالح الدمشقي المتعبد بالمسجد خارج باب شرقي من رجل صالح في جبل اللكام.

يـــا غَـنِـيًّـــا بـالدَّنـانـــيـــ ـــــرِ مُحِـــبُّ اللهِ أَغْنَـــى[١]

والمقصودُ هنا: شَرْحُ الكلماتِ التي أمرَ ﷺ بكَنْزِها وأشارَ إلى أنَّ نفعَها[٢] خيرٌ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وهي تتضمَّنُ طلبَ العبدِ مِن ربِّهِ لأهمِّ الأمورِ الدِّينيَّةِ.

فقولُه ﷺ: «أسألُكَ الثَّباتَ في الأمرِ»:

المرادُ بالأمرِ: الدِّينُ والطَّاعةُ فسألَ الثَّباتَ على الدين[٣] إلى المماتِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] الذين قالوا: ربُّنا اللهُ كثيرٌ، ولكنَّ أهلَ الاستقامةِ قليلٌ.

كان عُمَرُ يقولُ في خُطبتِهِ: اللهمَّ اعصِمْنا بحِفْظِكَ وثَبِّتْنا على أمرِكَ[٤].

فالاستقامةُ والثَّباتُ لا قُدرةَ للعبدِ عليه بنفسِه، فلذلك يحتاجُ أن يسألَه[٥] ربَّهُ.

كان الحسنُ إذا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] يقولُ: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزُقْنا الاستقامةَ[٦].

كان النَّبيُّ ﷺ كثيراً ما يقولُ: «يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثَبِّت قَلْبِي على دينِك»، فقيلَ له

---

(١) أنشده علي بن محمد بن بشار. ذكره أبو موسى المديني في «اللطائف من دقائق المعارف في علوم الحفاظ الأعارف» (٣٩).

(٢) في (س): «نفعها وأنها».

(٣) في (ت) و(ف): «عليهما».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٤). ولفظه: «اعصمنا بحبلك».

(٥) في (ت) و(ف): «يسأل».

(٦) «اللهم فارزقنا الاستقامة»: مكررة في (ف). والأثر أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٤٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٠٧)، والطبري في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٥).

في ذلك، فقال: «إنَّ القلبَ بين أصبعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ، إن شاء أن يقيمَهُ أقامَهُ، وإن شاءَ أن يُزيغَهُ أزاغَهُ»(١).

وفي روايةٍ للتِّرمذيِّ: قلنا: يا رسولَ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ فقال: نعم، ثمَّ ذكرَ الحديثَ(٢).

كيفَ يأمَنُ على نفسه مَن قلبُه بين أصبعينِ؟ كيفَ يطيبُ عيشُ مَن لا يدري بما يُختَمُ له؟

كم مِن عاملٍ خاشعٍ وُقِّعَ على قصَّةِ عملِه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣ ـ ٤]، رُبَّ صائمٍ حظُّه مِن صيامِه الجوعُ والعَطَشُ، وقائمٍ حظُّه مِن قيامِه السَّهَرُ.

كان بعضُ الصَّالحينَ يَسرُدُ الصِّيامَ، فإذا أفطرَ بكى، ويقولُ: أخشى أن يكون حظِّي منه الجوعَ والعطَشَ(٣).

في الصَّحيحِ: «إنَّ أحدَكُم لَيعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، حتَّى ما يبقى بينه وبينها إلَّا ذِراعٌ ثمَّ يَسبِقُ عليه الكِتابُ»(٤).

كم مِن عاملٍ يعمَلُ الخيرَ، إذا بَقِيَ بينه وبين الجنَّةِ، ذِراعٌ، وشارفَ مَركبُه(٥) ساحِلَ النَّجاةِ(٦) ضربَهُ مَوجُ الهوى فغَرِقَ.

---

(١) اللفظ مدرج من حديثين أخرجهما الإمام أحمد، أوله من حديث عائشة رضي الله عنها (٢٤٦٠٤)، وآخره من حديث النواس بن سمعان (١٧٦٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه (٢١٤٠)، وقال: حسن.

(٣) رحمه الله تعالى.

(٤) أخرجه البخاري في مواضع منها (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) في (س): «مراكبه».

(٦) في نسخة في (ف): «السلامة».

المِحْنةُ العُظمى أنَّ أمرك كلَّهُ بيَدِ مَن لا يُبالي بوُجودِكَ ولا عَدَمِك[١]، كم أَهْلَك قبلكَ مِثلَكَ. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

كان الحسنُ يبكي، ويُطيلُ البُكاءَ ويقولُ: أخافُ أن يَطْرَحَنِي في النَّارِ ولا يُباليَ[٢].

قال أبو الدَّرداءِ: ما أهونَ العِبادَ على اللهِ إذا عَصَوْهُ[٣].

يا قلبُ إلى مَ تُطالِبُني ... بلِقَا الأحبابِ وقَدْ رَحَلُوا
أَرْسلتُكَ في طَلَبي لَهُمُ ... لِتَعودَ فضِعْتَ وما حَصَلُوا
سَلِّمْ واصبِرْ واخضَعْ لَهُمُ ... كَمْ مِثلِكَ قَبْلَكَ قد قَتلُوا
ما أَحْسَنَ ما عَلَّقْتَ بهِ ... آمالَكَ مِنْهُم لو فَعَلُوا[٤]

العبدُ يحتاجُ إلى الثَّباتِ في طولِ حياتِه، وأحوَجُ ما يحتاجُ إليه عند مماتِه.

في الطَّبرانيِّ: «لَقِّنوا مَوْتاكم لا إلهَ إلَّا الله، وقولوا: الثَّباتَ الثَّباتَ، ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ»[٥].

---

(١) في (ت) و(ف): «وعدمك».

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٥٣٤)، وابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٣٦٢)، وفي «المقلق» (ص: ٢٩). وفي «صفة الصفوة» (٢/ ١٣٨). ثم وجدت ابن الجوزي قد أخرجه بسنده في «المنتظم» (٧/ ١٣٧).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٨٦) قاله بعد فتح قبرس.

(٤) ذكر الأبيات ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٢٩٩).

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١١١٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٣٩).

ويحتاجُ إلى الثَّباتِ أيضاً بعدَ الموتِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي «الصَّحيحِ»: أنَّها نزلَتْ في سُؤالِ القبرِ، يُسأَلُ المؤمِنُ في قبرِه، فيشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ(١).

وفي «سننِ أبي داودَ»: أنَّه ﷺ كان إذا دُفِنَ الميِّتُ يقولُ: «سَلُوا له التَّثبيتَ، فإنَّه الآنَ يُسأَلُ»(٢).

مَن دخلَ في الطَّاعةِ فهو يحتاجُ(٣) إلى الثَّباتِ عليها.

يا معشرَ التَّائبين! أنتم تُقاتِلُونَ جنودَ الهَوى بجنودِ التَّقوى، فاصبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا، لا تقولُوا: جنودُ الهوى لا طاقةَ لنا بها، ولكن اصبِرُوا إنَّ اللهَ مع الصَّابرين، يا جنودَ العَزائمِ! اثبتوا واحذَرُوا هَتِيكةَ الهزيمةِ، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

لا تَجْزعَنْ مِن كلِّ خطبٍ عـرا ... ولا تُـرِي الأعـداءَ مـا يَشْـمَتُوا

يـا قـومُ بالصَّبْـرِ يُنـالُ المُنَـى ... إذا لقيتُـمْ فئـةً فاثبتُـوا(٤)

يا قومِ الثَّباتَ الثَّبات، والمداومةَ المداومةَ إلى الممَات.

«أحبُّ العملِ إلى اللهِ أدوَمُه وإن قلَّ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٦٣) من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٣) في (ت) و(ف): «محتاج».

(٤) البيتان لأبي نصر سهل بن المرزبان، ذكرهما له الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٤/ ٤٥٤). والشطر الأول من البيت الثاني عنده: «أما سمعت الله في قوله». وذكر البيتين كما هنا: ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٧٦) وعنده: «يُشْمِتُ» بدل «يشمتوا».

(٥) حديث أخرجه مسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي حاشية (ف): «نكتة شريفة فافهم».

قال الحسنُ: إنَّ الله لم يجعَلْ لعَمَلِ المؤمنِ أجلاً دونَ الموتِ، ثمَّ قرأ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1] [الحجر: ٩٩].

في الصَّحيحِ: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سدِّدُوا وقارِبُوا، واغْدُوا وروحُوا، وشيءٌ مِن الدُّلْجَةِ، والقصْدَ القصْدَ تبلُغوا»[2].

يا معشرَ التَّائبين! صوموا اليومَ عن شَهواتِ الهوى، لتُدرِكُوا عيدَ الفطرِ يومَ اللقاء، لا يَطُولنَّ عليكم الأمدُ باستبطاءِ الأجلِ؛ فإنَّ مُعظمَ نهارِ الصِّيامِ قد ذهب، وإنَّ[3] عيد اللقاءِ قدِ اقترب[4]

وما هيَ إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي ... ويذهبُ هذا كلُّه ويزولُ[5]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ [العنكبوت: ٥].

مَن سارَ في طريقِ العُبوديَّةِ إلى لقاءِ الحبيبِ فلا بُدَّ مِن مُواصلَةِ السَّيرِ حتَّى يَصِلَ، فإنْ وقفَ في الطَّريقِ أو رجعَ هلكَ[6]؛ فإن اشتدَّ عليه ألَمُ السَّيرِ فليَذْكُر راحةَ الوُصولِ وقد زالَ التَّعَبُ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٨)، وأحمد بن حنبل في «الزهد» (١٥٤٨). وانظر «الزهد» لابن المبارك (١٩).

(٢) قد أفرد المصنف رحمه الله هذا الحديث الشريف بالشرح في رسالةٍ مفردة، وهو مما أخرجه البخاري (٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «إن»: من (ت) و(ف).

(٤) في (س): «قرب».

(٥) أصل البيت للبهاء زهير المصري، وهو في «ديوانه»: (ص: ٢١٠) وصدره: «وما هي إلا غيبة ثم نلتقي». وذكره كما هنا ابن القيم رحمه الله في عدد من كتبه.

(٦) في حاشية (ف) تعليق: «فافهم ترشد».

لهـا أحاديـثُ مِـن ذكـراكَ تَشْغَلُـها عـن الشَّـرابِ وتُلهيهـا عَـنِ الـزَّادِ
لهـا بوَجْهِـكَ نـورٌ تَسـتضيءُ بـهِ وقـتَ المسـيرِ وفـي أعقابِهـا حـادي
إذا شـكَتْ مِـن كَلالِ السَّـيرِ أُوعِدُهـا رَوْحَ القُـدومِ فتَحْيَـا عنـدَ مِيعـادِي[1]

* * *

قولُه ﷺ: «والعزيمةَ على الرُّشدِ».

العزيمةُ على الرُّشدِ مَبْدأُ الخيرِ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يعلَمُ الرُّشدَ وليس له عليه عزمٌ، فإذا عزمَ على فِعْلِه أفلحَ.

والعَزِيمةُ: هي القصدُ الجازمُ المتَّصِلُ بالفِعْلِ. وقيل: استجماعُ قُوَى الإرادةِ على الفعلِ. ولا قُدرةَ للعبدِ على ذلك إلَّا باللهِ، فلهذا كان مِن أهمِّ الأُمورِ سُؤالُ اللهِ العَزِيمةَ على الرُّشدِ.

وفي «المسند» عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ[2] قال لرَجُلٍ: «قُل: اللهمَّ قِني شرَّ نفسي واعزِمْ لي على أرشَدِ أمري»[3].

فالعبدُ يحتاجُ إلى الاستعانةِ باللهِ والتَّوكُّلِ عليه في تحصيلِ العَزْمِ، وفي العَمَلِ بمُقتضى العَزْمِ بعدَ حُصولِ العَزْمِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) الأبيات لإدريس بن أبي حفصة، انظر: الحماسة البصرية (١/ ١٥٧)، و«الأنوار» للشمشاطي (١/ ٤٠٠)، والبيت الأول مما كان يكثر الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله إنشاده، كما ذكر ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٦٠).

وجاء في (م) و(س): «إذا اشتكت».

(٢) «أن النبي ﷺ»: سقط من (م) و(س).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩٩٢).

والرُّشدُ: هو طاعةُ اللهِ ورَسُولِه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وكان النَّبيُّ ﷺ يقولُ في خُطبَتِه: «مَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد رَشَدَ، ومَن يعصِ اللهَ ورسولَه فقد غَوَى»(١).

والرُّشْدُ: ضدُّ الغيِّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فمَن لم يَكُن رشيداً فهو إمَّا غاوٍ وإمَّا ضالٌّ، كما قالَ تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، فالغاوي مَن تعمَّدَ خِلافَ الحقِّ، والضَّالُّ مَن لم يتعمَّدْه.

والعزمُ نوعانِ:

أحدُهما: عزمُ المُريدِ على الدُّخولِ في الطَّريقِ، وهو البداياتُ.

والثَّاني: العزمُ على الاستمرارِ على الطَّاعاتِ بعدَ الدُّخولِ فيها، وعلى الانتقالِ مِن حالٍ كاملٍ إلى حالٍ أكملَ منه، وهو مِن النِّهاياتِ، ولهذا سمَّى اللهُ تعالى خواصَّ الرُّسُلِ: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وهم خمسةٌ، وهم أفضَلُ الرُّسُلِ.

فالعَزْمُ الأوَّلُ يُحصِّلُ للعبدِ الدُّخولَ في كلِّ خيرٍ والتَّباعُدَ مِن كلِّ شرٍّ، إذ به يحصلُ للكافرِ الخروجُ مِن الكُفْرِ والدُّخولُ في الإسلامِ، وبه يحصلُ للعاصي الخروجُ مِن المعصيةِ والدُّخولُ في الطَّاعةِ، فإذا كانت العزيمةُ صادقةً وصمَّمَ عليها صاحِبُها وحمَلَ على هوى نفسِه وعلى الشَّيطانِ حملةً صادقةً ودخلَ فيما أُمِرَ به من الطاعات فقد فازَ.

---

(١) أخرجه الشافعي وهو في «مسنده ـ بترتيب السندي» (٤٢٧)، ومن طريقه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٦٤٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وعونُ اللهِ للعَبْدِ على قدر قوَّةِ عزيمتِه وضَعْفِها، فمَنْ صمَّمَ على إرادةِ الخيرِ أعانَه اللهُ وثبَّتَه كما قيلَ:

على قدرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العَزائِمُ وتأتي على قدرِ الكِرامِ المَكارِمُ[1]

لَمَّا أفضَتِ الخلافةُ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضي اللهُ عنه بعدَ سُلَيمانَ بنِ عبدِ الملكِ، فأوَّلُ ما اشتغلَ بدَفْنِ سُلَيمان، فلمَّا رجعَ مِن دفنِه، وصُفَّتْ له مَراكبُ الخِلافةِ، فوقفَ وأنشدَ:

ولولا النُّهَى ثمَّ التُّقَى خشيةَ الرَّدَى لعاصَيْتُ في حُبِّ الصِّبَا كلَّ زاجرِ

قَضَى ما قَضَى فيما مضَى ثمَّ لا تُرى لهُ عَوْدةٌ أخرى اللَّيالي الغَوابرِ

ثمَّ قال: ما شاءَ اللهُ لا قوَّةَ إلَّا باللهِ! قرِّبُوا إليَّ بَغْلي[2]. فرَكِبَ دابَّتَه التي كان يَركَبُها أوَّلاً، وسارَ مُستصحِباً لتلك العَزيمةِ، فعَلِمَ اللهُ صِدقَهُ فيها فأعانَه.

فأوَّلُ ما بدأَ به أنَّه سارَ بين يديه أهلُ الموكبِ فنَحَّاهُم، وقالَ: إنَّما أنا رجلٌ مِن المسلمينَ[3]، ثمَّ نزلَ فقعدَ، فقامَ النَّاسُ بين يديه فأُقعِدُوا، قال: إنَّما يقومُ النَّاسُ لربِّ العالَمينَ[4].

ثمَّ عزمَ على ردِّ المظالمِ، فأدركَتْهُ القائلةُ، وكان قد تَعِبَ وسَهِرَ تلك الليلةَ لِمَوْتِ سُليمانَ بنِ عبدِ الملك، فدخلَ ليَقيلَ ثمَّ يخرُجَ فيرُدَّ المظالمَ وقتَ صلاةِ الظُّهرِ، فجاءَ ابنُه عبدُ الملكِ فقالَ له: أتنامُ وما رددتَ المظالم؟ فقال: إذا صلَّيتُ الظُّهرَ رَدَدْتُها، فقالَ عبدُ الملكِ: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظُّهرِ؟ وإن عشتَ فمَنْ لك

---

(١) من الأبيات المشهورة للمتنبي يمدح سيف الدولة.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٣٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ١٦٦).

(٣) أخرجه الأصبهاني في «سير السلف الصالحين» (٣/ ٨٥٤).

(٤) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ٣٩).

أن تبقى لك نيَّتُكَ؟ فقامَ وخرجَ ونادى: الصَّلاةَ جامعةً، فاجتمعَ النَّاسُ، فردَّ المظالم، وجاءَ بكتبِ القُرَى والأملاكِ التي كانت في يدِه مِن إقطاعِ بني عمِّه، فمزَّقَها كلَّها، وردَّ تلك القُرَى إلى بيتِ مالِ المُسلمينَ[١].

وكان يقولُ: إنَّ لي نفساً توَّاقةً ما نالت شيئاً إلَّا تاقت[٢] إلى ما هو أفضَلُ منه، فلَمَّا نالتِ الخِلافةَ وليس فوقَها في الدُّنيا مَنزلَةٌ تاقَتْ إلى الآخرةِ[٣].

وإذا كانتِ النُّفوسُ كِباراً تَعِبَت في مُرادِها الأجسادُ[٤]

لَمَّا وَلِيَ الخلافةَ سمعوا[٥] في بيتِه صراخاً عالياً مِن النِّساءِ، فسُئِلَ عن ذلك، فقيل: إنَّه خيَّرَ امرأتَهُ وجَواريَه، فقال: مَن أرادَتْ مِنكنَّ أن تذهبَ فلتَذْهَبْ، ومَن أرادَتْ أن تُقيمَ فلتُقِم، وليس لها مِنِّي نَصيبٌ، فإنِّي قد نزلَ بي أمرٌ شغَلَني[٦] عنكنَّ، فبَكَيْنَ إياساً منه[٧].

ذاكَرُوه مَرَّةً شيئاً ممَّا كان فيه قبلَ الخِلافةِ مِن النَّعيمِ، فبَكى حتَّى بكى الدَّمَ[٨].

---

(١) أخرج نحوه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٣٥٨).

(٢) في (ف): «وتاقت».

(٣) أخرج نحوه مطولًا أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣١)، وابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٤).

(٤) البيت مشهور عن المتنبي، وآخره: «الأجسام».

(٥) في (ف): «سُمع» لكنه نصب «صراخاً» بعدها!

(٦) في (ت) و(ف): «أشغلني».

(٧) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ١٢٥). وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٨٩)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ١٦٨) (٧٣/ ١٢).

(٨) أخرجه أحمد بن حنبل في «الزهد» (١٦٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٣٧).

وكان أكثرَ ما يقتاتُ به حالَ خِلافَتِه العَدَسُ[١] والزَّيتُ، فإذا عُوتِبَ في ذلك يقولُ: هذا أهوَنُ علينا[٢] مِن مُعالجةِ الأغلالِ غداً في النَّارِ[٣].

ودخلَ مرَّةً على بَناتِه وقد كُنَّ تَعشَّيْنَ بعَدَسٍ فيه بصَلٌ، فكَرِهْنَ أن يَشَمَّ مِنهنَّ رائحةَ ذلك، فلمَّا رأينَه هرَبْنَ فبكى وقالَ: يا بناتي إمَّا تفعَلْنَ أن تتعشَّيْنَ الألوانَ[٤]، ويُذهبَ بأبيكنَّ إلى النَّارِ[٥]؟.

وكان يقولُ لأولادِه: إنَّ أباكم خُيِّرَ بين أن تَفتَقِرُوا ويَدخُلَ الجنَّةَ، وبين أن تَسْتغنوا ويَدخُلَ النَّارَ، فكان أن تَفتَقِرُوا ويَدخُلَ الجنَّةَ أحبَّ إليهِ[٦].

كم أحمِلُ في هواكَ ذُلًّا وعَنَا ... كم أصبِرُ فيك تحتَ ضُرٍّ وضَنَا

لا تَطرُدَنِّي فليس لي عنكَ غِنى ... خُذْ روحيَ إنْ أردتَ رُوحي ثَمَنَا[٧]

كان يقولُ لبَعضِ أعوانِه: إذا رأيتَني مِلتُ عن الحقِّ، فضَعْ يدكَ في تلبابي، ثمَّ هُزَّني وقُل[٨]: ما تصنَعُ يا عُمَرُ![٩].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٣٨) (٦٠/ ٣٦٠).

(٢) في (ف): «علي».

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢١٤).

(٤) هكذا في النسخ، وصوابه: «ما ينفعكن أن...».

(٥) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ٥٤).

(٦) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٧١).

(٧) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٥٧).

(٨) في (س): «فقل».

(٩) قاله عمر بن عبد العزيز رحمه الله لعمرو بن مهاجر. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٢).

تلبابي: مجمع الثياب عند النحر.

مِنْ أجْلِكَ قد تركتُ[1] خدِّي أرضَا ... للشَّامتِ والحَسُودِ حتَّى تَرْضَى

مَوْلاي إلى مَتى بهذا أحظَى ... عُمرِيَ يفنى وحاجَتي ما تُقْضَى[2]

لا زالَ ينحلُ جسمُه حتَّى كانت أضلاعُه يعدُّها مَنْ رآهُ عدًّا.

حبِّي والفِراقُ أورثاني سُقْمَا ... هذا جَسَدِي يُعَدُّ عظمًا عظمَا

دَعْني فالشَّوقُ قد كفاني خَصْمَا ... يا سهمَ البينِ قد أَصبتَ[3] المرمى[4]

وقال غيرُه:

أُخفِي شَجَني ولَوْعَتي تُبديهِ ... والدَّمعُ يَنِمُّ بالذي أُخفيهِ

قلبي قَلِقٌ بحُبِّ مَن يُضنِيهِ ... لا أعذِلُه فما به يَكفيهِ[5]

كم كان يُعذَلُ على حالهِ ويُلَام، والمحبَّة تنهاهُ أن يُصغِيَ إلى عَذْلٍ أو مَلَام.

ـو قطَّعَني الغَرامُ إربًا إربَا ... ما ازدَدْتُ على الملامِ إلَّا حُبَّا

زِلتُ بكُمْ أسيرَ وَجْدٍ صَبَّا ... حتى[6] أقضي على هواكُم نَحْبَا[7]

ما زالت به المَحَبَّةُ حتى رقَّتْه إلى درجةِ الرِّضى بمُرِّ القَضاء، فكان يقولُ: أصبحتُ ومالي سُرورٌ في غيرِ مَواقعِ القَضاءِ والقَدَرِ[8].

---

(١) في (ت) و(ف): «جعلت».

(٢) البيتان في «المدهش» لابن الجوزي (ص: ١٨١).

(٣) في (ت) و(ف): «أُصيبَ».

(٤) البيتان في «المدهش» (ص: ٣٢٩).

(٥) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٦) في (ت) و(ف): «حتى انني»!

(٧) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٨٢).

(٨) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٦٣)، وابن الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» =

ومات أعوانُه على الخيرِ كلُّهُم في أيامٍ مُتواليةٍ، ابنُه عبدُ الملكِ وأخوه سَهلٌ ومولاه مزاحِمٌ، فكان يقولُ بعدَ مَوتِهم في مُناجاتِه: أنت تعلَمُ[١] ما ازددتُ لك إلَّا حُبًّا ولا فيما عندكَ إلا رَغبةً[٢].

ولَمَّا دُفِنَ ابنُه عبدُ الملكِ، وكان أحبَّ الخلقِ إليه قال: ما زلتُ أرى فيه السُّرورَ وقُرَّةَ العينِ مِن يومِ وُلِدَ إلي يومي هذا، فما رأيتُ فيه أمراً قطُّ أقرَّ لعَيْني مِن أمرٍ رأيتُه فيه اليومَ[٣].

وكتبَ إلى الأمصارِ: إنَّ اللهَ أحبَّ قَبْضَه، وأعوذُ باللهِ أن تكونَ لي محبَّةٌ في مِن الأمورِ تُخالِفُ محبَّةَ اللهِ[٤]؛ فإنَّ خِلافَ ذلك لا يصلحُ في بلائِه عندي وإ ء إليَّ ونِعمَتِه عليَّ[٥].

إن كـــان سُكَّـــانُ الـغَـضـا ... رَضُـــوا بقَـتْـلِـــي فَرِضَـــا
واللهِ مـــا كنـــتُ لِـمَـــا ... يَهْـــوى الحبيـــبُ مُبغِضَـــا
صِـــرْتُ لهـــم عَبْـــدًا ومـــا ... للعَـبْـــدِ أن يَعتَرِضَـــا[٦]

= (ص: ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٠/ ٤٦) بألفاظ مقاربة.

(١) في (س): «تعلم أني».

(٢) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ١٠٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٧) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٤٤٣) في ترجمة علي بن الحسين بن الخشخاش البصري.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (١٧١٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٠٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٥٧).

(٦) في (م) و(س): «والله لا كنت».

والأبيات من شعر أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب، البارع، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» (٣/ ٦٦).

إخواني! الخيرُ كلُّه مَنوطٌ بالعَزيمةِ الصَّادقةِ على الرُّشدِ، وهي الحملةُ الأولى التي تهزِمُ جيوشَ الباطلِ، وتوجِبُ الغلبةَ لجنودِ الحقِّ.

زَجَـرَ الحَـقُّ فـؤادِي فارْعَوَى ... وأفـاقَ القَلْـبُ مِنِّـي وصَحَـا

هـزمَ العَـزْمُ جُيُوشـاً للـهَوَى ... سادَتِي لا تعجَبُـوا إن صَلحَـا[٧]

قال أبو حازمٍ: إذا عزمَ العَبْدُ على تركِ الآثامِ أتته[٢] الفُتوحُ[٣].

يشيرُ إلى ما يُفتَحُ عليه مِن تيسيرِ الإنابةِ والطَّاعةِ ومَقاماتِ[٤] العارفينَ.

سُئِلَ بعضُ السَّلفُ: متى ترتحلُ[٥] الدُّنيا مِن القَلْبِ؟ قال: إذا وقعَتِ العزيمةُ ترحَّلَتِ الدُّنيا مِن القلبِ ودرجَ القَلْبُ في ملكوتِ السَّماءِ، وإذا لم تقَعِ العزيمةُ اضطربَ القلبُ ورجعَ إلى الدُّنيا[٦].

مَن صَدَقَ العزيمةَ يَئِسَ منه الشَّيطانُ، ومتى كان العبدُ مُتردِّداً طَمِعَ فيه الشَّيطانُ وسوَّفَه ومنَّاه.

يا هذا! كلَّما رآك الشَّيطانُ قد خرجتَ مِن مجلس[٧] الذِّكرِ كما دخلتَ وأنتَ غيرُ عازمٍ على الرُّشدِ فَرِحَ بك إبليسُ، وقال: فديتُ مَن لا يُفلِح.

---

(٧) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله، وأورده في «لطائف المعارف» (ص: ٣٣٨).
«سادتي»: في جميع النسخ، وفي بعض نسخ «لطائف المعارف»: «فاسدي»!.

(٢) في (ت) و(ف): «أتت».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (١٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٦٢).

(٤) في (م) و(س): «بتيسير»، وفي (س): «ومقام».

(٥) في (ف): «ترحل».

(٦) مما سمعه أحمد بن أبي الحواري من مؤدب في البصرة يقال له: أبو غسان. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٥١٨) و«ذم الدنيا» (٤٤٤).

(٧) في (ت) و(ف): «مجالس».

يا مَن شابَ وما تاب، ولا عَزَمَ على الرُّشدِ ولا أناب، لقد أفرحتَ الشَّيطانَ وأسخَطْتَ الرَّحمَن.

وإذا تكاملَ للفَتى مِن عُمرِه ... خمسون وهو إلى التُّقى لا يجنَحُ

عكفَتْ عليه المُخزِياتُ فما لهُ ... مُتأخَّرٌ عنها ولا مُتزحزَحُ

وإذا رأى الشَّيطانُ غُرَّةَ وجهِه ... حَيَّا[1] وقال فَدَيتُ مَن لا يُفلِحُ[2]

* * *

قولُه ﷺ: «وأسألُكَ شُكرَ نِعمَتِك وحُسنَ عِبادَتِك»:

هذا كما وصَّى النَّبيُّ ﷺ مُعاذاً أن يقولَ في دبرِ كلِّ صلاةٍ: «اللهمَّ أعنِّي ء ذكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبادَتِك»[3].

فهذانِ أمرانِ:

أحدُهُما: شُكرُ النِّعَمِ، وهو مأمورٌ به قالَ تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، والشُّكرُ بالقَلْبِ واللسانِ والعَملِ بالجوارحِ.

فالشُّكرُ بالقلبِ: الاعترافُ بالنِّعَمِ للمُنعمِ وأنَّها منه وبفَضلِه.

---

(١) في (س): «حياه».

(٢) أصل الأبيات للبحتري، وهي في «ديوانه».

وأنشده له البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ٢٤٩) لكن قافيتها بكسر الحاء. وما عند المصنف مأخوذ من ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٣٤٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥١٧)، وهو الحديث المسلسل بالمحبة.

وجاء مِن حديثِ عائشةَ مرفوعاً: «ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً فعَلِمَ[١] أنَّها مِن عندِ اللهِ إلَّا كتبَ اللهُ[٢] لهُ شُكرَها»[٣].

ومِنَ الشُّكرِ بالقلبِ: محبَّةُ اللهِ على نِعَمِه، ومنه حديثُ ابنِ عبَّاسٍ المرفوعُ: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغذوكُم به مِن نِعَمِه»[٤].

قال بعضُهُم: إذا كانتِ القلوبُ جُبِلَت على حُبِّ[٥] مَن أحسَنَ إليها، فواعجباً لِمَن لا يرى مُحسِناً إلَّا الله كيفَ لا يميلُ بكُلِّيَّتِه إليه[٦].

وقال بعضُهم:

إذا أنتَ لم تزدَدْ على كُلِّ نِعمَةٍ ... لِمُؤتيكَها حُبًّا فلستَ بشاكرِ

إذا أنت لم تُؤثِرْ رِضَى اللهِ وحدَهُ ... على كُلِّ ما تهوى فلستَ بصَابرِ[٧]

والشُّكرُ باللسانِ: الثَّناءُ بالنِّعَمِ وذكرُها وتَعدادُها وإظهارُها، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

---

(١) في (س): «فيعلم».

(٢) في (س): «إلا كُتبَ له».

(٣) أخرجه يعقوب بن سفيان في «مشيخته» (٢٠)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٧٦)، والحاكم (١/ ٥١٤). وقال: «لا أعلم في إسناده أحداً ذكر بجرح، ولم يخرجاه».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩) وقال: غريب. يغذوكم: يرزقكم.

(٥) في (س): «محبة».

(٦) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» في ترجمة أبي سعيد الخراز من قوله، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٤٥٦)، ومن طرقهم ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ١٣٨). ولا يصح هذا الكلام مرفوعاً.

(٧) ذكرهما ضمن أبيات: القفطي في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (٢/ ٢٢٩) في ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد المقرئ المؤدب الأحدب.

وفي حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ المرفوعِ: «التَّحدُّثُ بالنِّعَمِ شكرٌ وتَركُها كُفْرٌ»(١).

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ذكرُ النِّعَمِ شكرُها(٢).

وكان يقولُ في دعائِه: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أُبدِلَ(٣) نِعَمَك كُفْرًا وأن أكفُرَها بعد مَعرِفَتِها أو(٤) أنساها فلا أُثْنِي بها(٥).

قال فُضَيلٌ: كان يُقالُ: مِن شُكرِ النِّعمةِ أن تُحدِّثَ بها(٦).

وجلس ليلةً هو وابنُ عيينةَ يتذاكرانِ النِّعَمَ إلى الصَّباحِ(٧).

والشُّكرُ بالجوارحِ: أن لا يُستعانَ بالنِّعَمِ إلَّا على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأن يحذرَ مِن استعمالِها في شيءٍ مِن معاصيه، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

قال بعضُ السَّلَفِ: لَمَّا قيلَ لهم هذا لم تأتِ عليهم ساعةٌ إلا وفيهم مُصَلٍّ(٨).

وكان النَّبيُّ ﷺ يقومُ حتَّى تتورَّمَ قدماهُ ويقولُ: «أفلا أكونُ عَبْداً شكوراً»(٩).

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «زياداته» (١٨٤٤٩) (١٨٤٥٠) (١٩٣٥٠)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٤)، ومن طريقه: القضاعي في «الشهاب» (٤٤)، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٢٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٠٦)، وغيرهما.

(٣) في (ف): «أتبع».

(٤) في (ت) و(ف): «و».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٧)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٢٥).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٦).

(٧) ذكره عنهما: ابن أبي الحواري، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١١٤).

وفي (م) و(س): «يتذاكرون».

(٨) قاله مسعر رحمه الله. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧٤).

(٩) أخرجه البخاري (١١٣٠) (٦٤٧١) ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ومرَّ ابنُ المُنكَدِرِ بشابٍّ يُقاوِمُ امرأةً فقالَ: يا بُنَيَّ! ما هذا جزاءُ نعمة الله عليك[١].

العجبُ ممَّنْ يعلَمُ أنَّ كلَّ ما بهِ مِن النِّعَمِ مِن اللهِ ثمَّ لا يَستَحْيِي مِن الاستعانةِ بها على ارتكابِ ما نهاهُ.

هَبِ البَعْثَ لم تأتِنا رُسلُه ... وجاحمةَ النَّارِ لم تُضرَمِ

أليسَ مِن الواجبِ المُستَحَقْ ... قُ حياءُ العِبَادُ مِن المُنعمِ[٢]

مَن كَثُرَت عليه النِّعَمُ فليُقَيِّدْها بالشُّكرِ وإلَّا ذهبَتْ.

إذا كنتَ في نِعمَةٍ فارعَها ... فإنَّ المعاصي تُزِيلُ النِّعَمْ

وحافِظْ عليها بشُكْرِ الإلَهِ ... فشُكْرُ الإلهِ يُزِيلُ النِّقَمْ[٣]

دخلَ خالدُ بنُ صفوانَ على عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فقال: يا أميرَ المؤمنين! إنَّ اللهَ لم يرضَ أن يكونَ أحدٌ فوقك، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أَوْلى بالشُّكرِ له منك، فبكى عُمَرُ حتَّى غُشِيَ عليه[٤].

والأمرُ الثَّاني: حُسْنُ العبادةِ. وحُسْنُها[٥]: إتقانُها والإتيانُ بها على أكملِ وُجوهِها.

وإلى هذا أشارَ ﷺ لَمَّا سألَهُ جبريلُ عنِ الإحسانِ فقال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه فإن لم تكُن تراهُ فإنَّه يراكَ»[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٦). يقاوم: يغامز.

(٢) أصلهما للوزير الحسن بن محمد المهلبي، كما في «يتيمة الدهر» للثعالبي (٢/ ٢٨٥). وذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٩٤).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي (٤٢٣٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٧٠) وقائل الشعر قديم.

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٣٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٩٦).

(٥) في (س): «وحسن العبادة».

(٦) من حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتح به مسلم أحاديث صحيحه.

فأشارَ إلى مقامينِ:

أحدُهما: أن يَعبُدَ اللهَ العبدُ مُستحضِراً لرُؤيةِ اللهِ إيَّاهُ، ويستحضرَ قُربَ الله منه واطِّلاعَه عليه فيُخلِصَ له العملَ ويَجتهِدَ في إتقانِه وتحسينِه.

والثَّاني: أن يَعبُدَهُ على مُشاهدَتِه إيَّاه بقَلْبِه فيُعامِلَهُ مُعاملةَ حاضرٍ لا مُعاملةَ غائبٍ.

وقد وصَّى ﷺ رَجُلاً أن يُصَلِّيَ صلاةَ مُودِّعٍ[1]، يعني: يَستشعِرُ أنَّه يصلِّي صلاةً لا يُصلِّي بعدَها صلاةً أُخرى، فيحملُه ذلك على إتقانِها وتكميلِها وإحسانِها.

وقد وردَتْ أحاديثُ فضائلِ الأعمالِ مُقيَّدةً بإحسانِ العَملِ، كما في حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أسلمَ العبدُ فحَسُنَ إسلامُه كتبَ اللهُ له كلَّ حسنةٍ كان أزلفَها ومحى عنه كلَّ سيِّئةٍ كان أزلفَها، ثمَّ كان بعد ذلك القِصاصُ، الحسنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضِعفٍ، والسَّيِّئةُ بمثلِها إلَّا أن يتجاوزَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنها» خرَّجه البُخاريُّ تعليقاً[2].

وفي روايةٍ: «وقيلَ له ايتنف[3] العملَ»[4].

وفي «صحيحِ مُسلمٍ» عن أبي هُريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أحسنَ أحدُكم إسلامَه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٤٩٨) وابن ماجه (٤١٧١) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (٤١) وليس فيه ذكر الحسنة، واللفظ الذي أورده المصنف خرجه النسائي (٤٩٩٨).

أزلفها: قرَّبها، والمراد: ما تقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر والخير الصالحة.

(٣) في (س): «استئنف».

(٤) عزاه القسطلاني في «إرشاد الساري» (١/ ١٢٨) إلى الإسماعيلي موصولاً.

فكلُّ حسنةٍ يعمَلُها تُكتَبُ بعشرِ أمثالِها إلى سبع مئةِ ضعفٍ، وكلُّ سيئةٍ تُكتَبُ بمثلِها حتَّى يَلْقى اللهَ عزَّ وجلَّ»(١).

وفيه أيضاً: عن عثمانَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن توضَّأَ فأحسنَ الوُضوءَ خرجَتْ خطاياه مِن جَسَدِه حتَّى تَخرُجَ مِن تحتِ أَظفارِه»(٢).

وفيه أيضاً: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن أحسنَ في الإسلامِ لم يُؤاخَذْ بما عَمِلَ في الجاهليَّةِ، ومَن أساءَ في الإسلامِ أُخِذَ بالأوَّلِ والآخرِ»(٣).

وكان السَّلفُ يوصونَ بإتقانِ العملِ وتحسينِه دون الإكثارِ منه(٤)؛ فإنَّ العملَ القليلَ مع التَّحسينِ والإتقانِ أفضلُ مِن الكثيرِ مع الغَفْلةِ وعدمِ الإتقانِ.

قال بعضُ السَّلفِ: إنَّ الرَّجُلينِ لَيقومانِ في الصَّفِّ وبين صلاتَيْهِما كما بين السَّماءِ والأرضِ(٥).

كم بين مَن تصعَدُ صلاتُه لها نورٌ وبُرهانٌ كبُرهانِ الشَّمسِ وتقولُ: «حَفِظَكَ اللهُ كما حَفِظتَني»، وبين مَن تُلَفُّ صلاتُه كما يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلَقُ فيُضرَبُ بها وجهُ صاحبِها وتقولُ له: «ضيَّعَكَ اللهُ كما ضيعتَنِي»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩)، وأخرجه البخاري أيضاً (٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في حاشية (س): «مطلب: في إحسان العمل».

(٥) أخرجه الدولابي في «الكنى والأسماء» (١٦٧٧)، وابن المبارك في «زيادات الزهد برواية نعيم بن حماد» (ص: ٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٧) من كلام شفي بن ماتع الأصبحي.
وأخرجه ابن المبارك في «زيادات الزهد برواية نعيم بن حماد» (ص: ٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧١) من كلام حسان بن عطية. وأما روايته مرفوعاً فموضوعة. والله أعلم.

(٦) مقتبسٌ من حديث أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٥٨٦) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: صلاةُ ركعتينِ في تَفكُّرٍ خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ[١].

قال بعضُ السَّلَفِ: لا يَقِلُّ عملٌ مع تقوى، وكيف يَقِلُّ ما يُتقبَّلُ؟[٢] يشيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ولهذا قالَ مَن قالَ مِن الصَّحابةِ: لو علمتُ أنَّ اللهَ قَبِلَ مِني ركعتينِ كان أحبَّ إليَّ مِن كذا وكذا[٣]. فمَنِ اتَّقى اللهَ في العملِ قَبِلَه منه، ومَن لم يتَّقِه فيه لم يتقبَّلْه منه، والتَّقوى في العَملِ أن يأتيَ به على وجهِ إكمالِ واجِباتِه الظَّاهرةِ والباطنةِ، وإن ارتقى إلى الإتيانِ بآدابِه وفضائلِه كان أكملَ، والقبولُ هنا يرادُ به: الرِّضى بالعملِ والمدحُ لعاملِه والثناء عليه في الملأِ الأعلى ومُباهاةُ الملائكةِ.

وقد يرادُ بالقبولِ: الثَّوابُ على العملِ وإن لم يَرْضَ به ولم يَمْدَح عاملَه، فيُجازى عليه بأنواعٍ مِن الجزاءِ فَضْلاً مِن اللهِ وإحساناً وإن لم يرضَ عن عاملِه.

كما رُئِيَ بعضُ العُلَماءِ المفرِّطينَ في النَّومِ، فسُئِلَ عن حالِه، فقال: غفرَ لي وأعرضَ عنِّي وعن جماعةٍ مِن العُلَماءِ لم يعمَلُوا بعِلْمِهم[٤].

ويُطلَقُ القَبولُ على إسقاطِ الفَرْضِ بالعَملِ، وإن لم يُثَب عليه بثَوابٍ غيرَ سُقوطِ العقوبةِ والمُطالبةِ بأداءِ الفرضِ به.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨) (١١٤٧). وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٤٢) عن ابن عباس موقوفاً: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه. كما في تفسير آية المائدة من «الدر المنثور» للسيوطي.

(٤) ذكره المصنف رحمه الله أيضاً في الباب العاشر من «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس».

والعارفونَ كلُّهُم إنَّما يَطلبونَ القبولَ بالوَجهِ الأوَّلِ وهو الرِّضَى، ويخافونَ مِن فَواتِه أشدَّ الخوفِ.

قال مالكُ بنُ دينارٍ: وَدِدتُ أنَّ اللهَ تعالى إذا جمعَ الخلائقَ يقولُ لي: يا مالك! فأقولُ: لبيكَ، فيأذَن لي أن أسجُدَ بين يديهِ سَجدةً، فأعرف أنَّه قد رَضِيَ عنِّي، ثمَّ يقول لي: يا مالك! كنِ اليومَ تراباً، فأكون تُراباً[١].

كان بعضُهُم يقولُ في سُجودِه: متى ألقاكَ وأنت عني راضٍ[٢]؟

قد عَذَّبني بكثرةِ الإعراضِ ... وَاعْتاضَ ولستُ عنه بالمُعتاضِ

يا مَنْ بوِصالِه شِفا أمراضِي ... هل أنتَ عليَّ ساخطٌ أم راضِي؟[٣]

رضاهُ أكبرُ مِن الجنَّةِ ونَعيمِها، فليس للعارفينَ هَمٌّ سِواه.

لعلَّكَ غضبانٌ وقلبيَ غافِلٌ ... سلامٌ على الدَّارينِ إن كنتَ راضِيَا[٤]

* * *

قولُه ﷺ: «وأسألُكَ قلباً سليماً ولِساناً صادقاً»:

القلبُ واللسانُ هما عِبارةٌ عن الإنسانِ، كما يقالُ: الإنسانُ بأصغَريهِ قلبِه[٥] ولسانِه[٦].

---

(١) أخرجه الختلي في «الديباج» (٢٤)، وابن أبي الدنيا في «المتمنين» (٣٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»(٥٦/ ٤١٢). ولا يوجد في المصادر: «فأكون تراباً»، وكذلك لا توجد في (ف).

(٢) كان يقوله مسلم بن يسار رحمه الله.

أخرجه أحمد في «الزهد» (١٣٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ١٣٧).

(٣) لم أجد البيتين عند غير المصنف رحمه الله.

(٤) في هامش (س): «بلغ». والبيت ذكره ابن الجوزي في «التبصرة» (١/ ٢٤٤).

(٥) في (س): «بقلبه».

(٦) مثل قديم قبل الإسلام.

وخرَّجَ ابنُ سعدٍ، من روايةِ عُروةَ بنِ الزُّبيرِ مُرسَلاً: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لَمَّا رأى أشجَّ عبدِ القيسِ، وكان رَجُلاً دميماً، [فقال الأَشجُّ]: «إنه لا يُستقى في مُسُوكِ[1] الرِّجالِ، إنَّما يُحتاجُ مِن الرَّجُلِ إلى أصغريهِ لسانِه وقلبِه»[2].

وقال المتنبِّي:

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ ... فلم يَبقَ إلَّا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ[3]

فمَنِ استقامَ قلبُه ولِسانُه استقامَ شأنُه كلُّه، فالقلبُ السَّليمُ هو الذي ليس فيه شيءٌ مِن محبَّةِ ما يكرَهُه اللهُ، فدخلَ في ذلك سلامتُه مِن الشِّركِ الجَليِّ والخَفيِّ، ومِن الأهواءِ والبِدَعِ، ومِن الفُسوقِ والمعاصي كبائرِها وصَغائرِها الظَّاهرةِ والباطنةِ؛ كالرِّياءِ والعُجْبِ والغِلِّ والغِشِّ والحِقْدِ والحَسَدِ وغيرِ ذلك.

وهذا القلبُ السَّليمُ هو الذي لا ينفعُ يومَ القيامةِ سواهُ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

إذا سَلِمَ[4] القلبُ لم يَسكُنْ فيه إلَّا الرَّبُّ[5].

---

(١) في حاشية (ف): «جلود».

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١١٨) من رواية عبد الحميد بن جعفر عن أبيه مرسلًا. وإنما رواية عروة بن الزبير لمتن كان قبله!

وهو موقوف من كلام الأشج، وليس من كلام النبي ﷺ! وهو في النسخ الخطية لدينا معزو للنبي ﷺ لذلك أضفنا ما بين معقوفين لإيضاح الأمر وعدم نسبته للنبي ﷺ. ومعناه: أن دمامة الوجه لا تحجب حسن قول صاحبه وحسن رأيه فما يُصنع بعد ذلك بجلد وجهه!

(٣) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى. وتمثل به عدة من الأفاضل. فليس هو للمتنبي.

(٤) في (ف): «أسلم».

(٥) معناه: لم يسكن فيه إلا محبة الرب سبحانه.

في بعضِ الآثارِ[١]: يقولُ اللهُ: ما وَسِعَني سَمائي ولا أرضي، ولكن وَسِعَني قلبُ عبدي المؤمنِ[٢].

ساكنٌ في القلبِ يَعمُرُه ... لستُ أنساهُ فأذكرُهُ

غابَ عن سَمْعِي وعن بَصَرِي ... فسُوَيدا القلبِ تُبصِرُهُ[٣]

متى سكنَ في القلبِ غيرُ اللهِ فاللهُ أغنى الأغنياءِ عنِ الشِّركِ، وهو لا يرضى بمُزاحمةِ أصنامِ الهوى.

أردناكُمُ صِرْفاً فلمَّا مُزِجْتُم ... بَعُدْتُم بمقدار التِفاتِكُمُ عنَّا

وقُلنا لكم لا تُسكِنُوا القَلْبَ غيرَنا ... فأسكنتُمُ الأغيارَ ما أنتمُ مِنَّا[٤]

سلامةُ الصُّدورِ مِن الرِّياءِ والغِلِّ والحَسَدِ والغِشِّ والحِقْدِ، وتطهيرُها مِن ذلك أفضَلُ مِن التَّطوُّعِ بأعمالِ الجَوارحِ.

قال بعضُهم: ما بلغ عندنا مَن بلغَ بكثرةِ صيامٍ ولا صلاةٍ، ولكن بسَلامةِ الصُّدورِ وسَخاوةِ النُّفوسِ والنَّصيحةِ[٥].

وكثرةُ أعمالِ الجَوارحِ مع تدنُّسِ القلبِ بشيءٍ مِن هذه الأوضارِ لا يزكو، وهو كزرعٍ في أرضٍ كثيرةِ الآفاتِ، لا يكادُ يسلَمُ ما ينبتُ[٦] فيها.

---

(١) في (ت) و(ف): «في بعض نسخ الآثار».

(٢) أثر إسرائيلي. وانظر التعليق عليه في «الكلام على كلمة الإخلاص».

(٣) ذكر نحو هذين البيتين عن الجنيد القشيريُّ في «الرسالة» (٢/ ٤٧٢).

(٤) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٣٢٧).

(٥) نقله المصنف رحمه الله أيضاً عن بعض السلف في «لطائف المعارف» في وظيفة شهر ذي القعدة. وهذا المعنى يُروى مرفوعاً في أحاديث الأبدال. كمرسل الحسن، عند ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٩٣).

(٦) في (س): «نبت».

وأمَّا اللسانُ الصَّادقُ فهو مِن أعظمِ المواهبِ مِن اللهِ والمِنَحِ، وفي الحَديثِ: «أعظَمُ الخَطايا اللِّسانُ الكذوبُ»[١]، وكذلك اللِّسانُ الصَّادقُ أعظَمُ الحَسَناتِ.

وروى أبو نُعَيمٍ بإسناده: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ العاصِ كان جالساً فأقبلَ إليه تُبَيْعٌ الحِمْيَريُّ، فقال عبدُ اللهِ: قد أتاكم أعرَفُ مَن عليها، فلمَّا جلسَ قال له عبدُ اللهِ: أخبِرْنا عن الخَيْراتِ الثَّلاثِ والشَّرَّاتِ الثَّلاثِ، قال: نعم، الخَيْراتُ الثَّلاثُ: لسانٌ صَدوقٌ وقلبٌ نقيٌّ[٢] وامرأةٌ صالحةٌ، والشَّرَّاتُ الثَّلاثُ: لسانٌ كذوبٌ وقلبٌ فاجرٌ وامرأةُ سوءٍ، فقال عبدُ اللهِ: قد قلتُ لكم[٣].

وفي «الصَّحيحِ»، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يَهْدي إلى البرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجنَّةِ، وإيَّاكم والكَذِبَ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفُجورِ، والفُجورَ يهدي إلى النَّارِ، ولا يزالُ الرَّجُلُ يصدقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ صِدِّيقاً، ولا يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً»[٤].

وفيه أيضاً: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ، إذا حدَّثَ كذبَ وإذا وعدَ أخلفَ وإذا اؤتمِنَ خان»[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٤١) من حديث عقبة بن عامر، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٧٩)، وأبو داود في «الزهد» (١٦٠) وغيرهما موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٧٨) موقوفاً على علي رضي الله عنه.

(٢) في (م): «تقي».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالكَذِبُ أساسُ النِّفاقِ الذي بُني عليه، كما أنَّ الصِّدقَ أساسُ الإيمانِ.

قال ابنُ مَسعودٍ: إنَّ الكذبَ لا يَصلحُ في جدٍّ ولا هزلٍ، ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١٩][١].

وقال كعبُ بنُ مالكٍ: إنَّ مِن تَوْبتي أن لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقاً، قال: وإنَّما نجَّاني اللهُ بالصِّدقِ[٢].

قال بعضُهم: حقيقةُ الصِّدقِ أن يَصدُقَ العبدُ في موطنٍ يرى أنَّه لا يُنَجِّيه فيه إلا الكَذِبُ[٣].

كان الرَّبيعُ بنُ حِراشٍ[٤] مَوْصوفاً بالصِّدقِ، يقالُ إنَّه لم يكذِبْ قطُّ، وكان له ابنانِ عاصيانِ للحَجَّاجِ، وكان يَطلُبُهما، فقَدِما على أبيهما، فبعثَ الحجَّاجُ إلى الرَّبيعِ وقال: سيَعْلَمُ بنو عبسٍ أنَّ شيخَهُم اليوم[٥] يكذِبُ، فقال له: أين ابناكَ؟ فقال: تركتُهما في البيتِ واللهُ المستعانُ، فقال: قد عفَوْنا عنهما بصِدْقِك[٦].

ومتى طَهُرَ اللسانُ مِن الكذبِ طَهُرَ مِن غيرِه مِن الكلامِ السَّيئِ المُحرَّمِ، واستقامَ حالُ العبدِ كلُّه، ومتى لم يستقِم اللسانُ فسدَ حالُ العبدِ كلُّه.

وربَّما يُعبَّرُ عن صدقِ اللسانِ باستقامةِ المقالِ كلِّه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَل

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٠)، ووكيع في «الزهد» (٣٩٥) (٣٩٦)، وعبد الرزاق (٢٠٠٧٦)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٦٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٧). وغيرهم.

(٢) في حديث توبته الطويل، أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) هو من كلام الجنيد رحمه الله. أخرجه القشيري في «الرسالة» (٢/ ٣٦٥).

(٤) كذا في النسخ، وإنما هو أخوه رِبعي رحمهما الله تعالى.

(٥) «اليوم»: سقط من (س).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٣٥)، و«الصمت» (٤٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٦٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٤٣ ـ ٤٤).

لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] يريدُ ثناءً عليهم بحقٍّ.

وكما تنقسمُ الأعمالُ[١] إلى صدقٍ وغيرِ صدقٍ، والمرادُ بالصِّدقِ ما له نفعٌ ودوامٌ، فكذلك أقوالُ الصِّدقِ قد يرادُ بها ما هو حقٌّ له نفعٌ وثَباتٌ.

وجاءَ مِن حديثِ أنسٍ مرفوعاً: «لا يَستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه» خرَّجَه الإمامُ أحمدُ[٢].

ويُروى مِن حديثِ أبي سعيدٍ رفعَه: «إذا أصبحَ ابنُ آدمَ، فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكَفِّرُ اللسانَ تقول: اتَّقِ اللهَ فينا، فإن استقَمْتَ استقمنَا، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا» خرَّجَه التِّرمذيُّ وصحَّحَ وقفَه[٣].

وقال مُطرِّفٌ: مَن صفا عملُه صفا لِسانُه، ومَن خلط خُلطَ له[٤].

وقال يونسُ بنُ عبيدٍ: ما رأيتَ أحداً لسانُه منه على بالٍ إلَّا رأيتَ ذلك صلاحاً في سائرِ عملِه[٥].

ومِن مَراسيلِ زيدِ بنِ أسلمَ: «ما مِن عُضوٍ مِن الأعضاءِ إلَّا وهو يَشْتكي إلى اللهِ ما يلقى مِن اللسانِ على حِدتِه»[٦].

---

(١) في (س): «الأقوال».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٣٠٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) مرفوعاً وموقوفاً.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الكذب» (١١١)، وفي «الصمت» (٥٧٣)، ومن طريقه وطريق غيره: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٣٠٣).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٠) (٦٥٣)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١١٢).

(٦) أخرجه الخطيب من حديث زيد بن أسلم مرسلًا في «الفصل للوصل المدرج في النقل» (١/ ٢٠٩)، وأدرجه بعضهم على موقوف قبله، انظر: «الورع» لابن أبي الدنيا (٩٢)، و«الصمت» (١٣).

قال الحسَنُ: اللسان[١] أميرُ البَدنِ؛ فإذا جنى على الأعضاءِ شيئاً[٢] جنَتْ، وإذا عَفا عَفَتْ[٣].

وقد رُوِيَ عن طائفةٍ من السَّلَفِ: أنَّ اللِّسانَ ترجمانُ القلبِ، والقلبَ مَلِكُ الأعضاءِ، وبقيَّةَ الجوارحِ جنودُه[٤].

فإذا صلحَ الملكُ وترجمانُه صَلَحت الجنودُ كلُّها، وإذا فَسَدا فسَدَتِ الجنودُ كلُّها، فإذا كان الملك سليماً مِن الهوى، والتُّرجمانُ صادقاً أميناً، فالرَّعيَّةُ معهما في عافيةٍ، وإن كان المِلكُ جائراً، والتُّرجمانُ غيرَ أمينٍ فلا تسألْ عن فَسادِ حالِ الرَّعيَّةِ معَهما، ومتى كان التُّرجمانُ غيرَ أمينٍ فقد يُلَبِّسُ[٥]، ولكن حالُ الجائرِ لا يخفى.

وفي «الصَّحيحينِ»، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ألا إنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدت فَسَد الجسَدُ كلُّه ألا وهي القلبُ»[٦].

وقد تقدَّمَ حديثُ أنسٍ المرفوعُ: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتَّى يستقيمَ لِسانُه»[٧].

---

(١) في (ف): «القلب»! سبق قلم.

(٢) في (ت) و(ف): «منه شيئاً».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٩) وعنده: «وإذا عفَّ عفَّت».

(٤) ذُكر هذا المعنى في حديثين مرفوعين أخرجهما ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٥٠) من حديث أبي سعيد ومن حديث عائشة رضي الله عنهما. وذكر هذا المعنى كثير من المصنفين قديماً وحديثاً.

(٥) في (س): «يلتبس». وفي (ت) و(ف): «تلبس».

(٦) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٧) وقد سبق آنفاً.

وفي «المسندِ» أيضاً، عن ابنِ مَسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيدِه لا يُسلِمُ عبدٌ حتى يُسلِمَ قلبُه ولسانُه»(١).

وفي «سنن ابن ماجه»، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال: قلنا: يا رسولَ اللهِ! مَن خيرُ النَّاسِ؟ قال: «ذو القلبِ المخمومِ، واللسانِ الصَّادقِ». قلنا(٢): قد عَرَفنا اللسانَ الصَّادقَ، فما القلبُ المخمومُ؟ قال: «هو التَّقيُّ النَّقيُّ الذي لا إثمَ فيه ولا غِلَّ ولا بغيَ ولا حَسَدَ»(٣).

وفي «المسند»: عن أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «قد أفلحَ مَن أخلصَ قلبَهُ للإيمانِ، وجعلَ قلبَه سليماً، ولسانَه صادقاً، ونفسَهُ مُطمئنَّةً، وخليقتَهُ مُستقيمةً، وجعلَ أذنَه مُستمعةً، وعينَه ناظرةً، فأمَّا الأذنُ فَقِمْعٌ(٤)، والعينُ مقرَّةٌ، بِمَ(٥) يُوعى القلبُ، فقد أفلح مَن جعلَ قلبَه واعياً»(٦).

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقولُ في دُعائِه: «وسَدِّد لِساني، واسلُلْ سَخِيْمةَ صَدْرِي» خرَّجه التِّرمذيُّ(٧).

وسَخِيمةُ الصَّدرِ: ما فيه مِن الغِلِّ والغِشِّ والحسَدِ ونحو ذلك.

قال خالدٌ الرَّبَعيُّ: أمرَ سيِّدُ لُقمانَ لقمانَ بذَبحِ شاةٍ، وقالَ له: ائتِني بأطيَبِها

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٢).

(٢) في (ف): «قال».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) بنحوه.

(٤) القمع: ما يوضع في فم القربة حتى ينصبَّ منه الماء فيها.

(٥) في (ت) و(ف): «ثم يوعي».

(٦) أخرجه أحمد (٢١٣١٠).

(٧) أخرجه الترمذي (٣٥٥١)، وقال: «حسن صحيح».

مُضغتينِ. فأتاه باللِّسانِ والقلبِ، فقال له[١]: أما وجدتَ فيها[٢] أطيبَ مِن هذينِ؟ قال: لا. ثمَّ أمرَه أن يذبحَ شاةً أخرى، وقال له: ألقِ أخبثَها مُضغتينِ، فألقى اللسانَ والقلبَ، فقال له: أما كان فيها أخبثُ مِن هذينِ؟ قال: لا. فسألَه عَن فعلِه الأوَّل والثَّاني، فقالَ: إنَّه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ مِنهما إذا خبثا[٣].

تعاهَدْ لسانَكَ إنَّ اللسانَ ... سريعٌ إلى المرءِ في قَتْلِهِ

وهذا اللِّسانُ بَريدُ[٤] الفُؤادِ ... يَدُلُّ الرِّجالَ على عقلِهِ[٥]

إذا سَلِمَ القلبُ وصدقَ اللسانُ: ترجمَ اللِّسانُ الصَّادقُ عن القلبِ السَّليمِ بأنواعِ السَّلامةِ، فهذا المسلمُ الذي[٦] سَلِمَ المسلمون مِن لسانِه ويدِه. وإذا فسدَ القَلْبُ فسَدَ اللِّسانُ، فترجمَ عن القلبِ بأنواعِ الفسادِ، وهذا الفاجرُ المُعلِنُ بفُجورِه، فإن ترجمَ عن القلبِ الفاسدِ بالسَّلامةِ[٧] فهذا اللسانُ الكذوبُ، وهو المنافقُ[٨] الذي يختَلِفُ ظاهرُه وباطنُه وقولُه وفِعلُه.

يا مَن يقولُ بلِسانِه ما ليس في قلبِه! لا تَبع ما ليس عندَك، لا تنسُبْ أحكامَ فِرعون إلى موسى.

* * *

(١) في (ف): «فقال له لقمان» وهو خطأ.

(٢) في (ف): «فيها شيئاً».

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٧١).

(٤) في حاشية (س): «لعله: دليل». وليس كذلك.

(٥) البيتان لعبد الله بن المبارك رحمه الله. أنشدهما له ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٩١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٦٨٣).

(٦) في (س): «من».

(٧) في حاشية (س): «لعله بالفجور». وليس كذلك فما في المتن صواب.

(٨) في (ت) و(ف): «للمنافق».

قولُه ﷺ: «وأسألُكَ مِن خيرِ ما تعلَمُ وأعوذُ بك مِن شرِّ ما تعلَمُ»:

هذا سؤالٌ جامعٌ لطلَبِ كلِّ خيرٍ والاستعاذةِ مِن كلِّ شرٍّ، وسواء عَلِمَه الإنسانُ أو لم يعلَمْه، وهذا السُّؤالُ العامُّ بعد سؤالِ تلك الأُمورِ الخاصَّةِ مِن الخيرِ هو مِن بابِ ذكرِ العامِّ بعد الخاصِّ[1].

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُعجِبُه الجوامِعُ مِن الدُّعاءِ، ويأمرُ بها، كما خرَّجه الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجَه وابنُ حِبَّان في «صحيحه» مِن حديثِ عائشةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمَها هذا الدُّعاءَ: «اللهمَّ إني أسألُكَ مِن الخيرِ كلِّه عاجلِه وآجلِه ما عَلِمْتُ منه وما لم أعلَم، وأعوذُ بك مِن الشَّرِّ كلِّه عاجلِه وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلَم، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ مِن خيرِ ما سألكَ منه عبدُك ونبيُّك، وأعوذُ بك مِن شرِّ ما عاذَ[2] منه عبدُكَ ونبيُّك، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعمَلٍ، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعملٍ، وأسألُكَ ما قضيتَ لي مِن قضاءٍ أن تجعلَ عاقبتَهُ[3] رشداً»[4].

وخرَّجَه الحاكمُ، وعنده أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لها: «يا عائشةُ! عليكِ بالكواملِ»[5]، وذكرَ الحديثَ.

---

(١) في (س): «العامة بعد الخاصة»! لعله سبق نظر.

(٢) في (ف): «استعاذ».

(٣) في (م) و(س): «عاقبته لي».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠١٩)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان (٨٦٩). وعندهم: «وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً» بدلاً من الجملة الأخيرة، وهي مدرجة من طريق آخر يأتي تخريجه في التعليق التالي.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٥١٣٧) (٢٥١٣٨)، والحاكم (١/ ٥٢٢).

وخرَّجه الفِريابيُّ في «كتاب الدعاء»، وفي روايةٍ له: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لها: «يا عائشةُ! عليكِ بالجوامعِ من الدُّعاءِ»[١] فذكرَه.

وخرَّجَ التِّرمذيُّ مِن حديثِ أبي أمامةَ قال: دعا رسولُ اللهِ ﷺ بدُعاءٍ كثيرٍ لم نحفَظْ منه شيئاً، قلتُ: يا رسولَ اللهِ! دعوتَ بدُعاءٍ كثيرٍ لم نحفَظْ منه شيئاً، فقال: ألا أدلُّكُم على ما يجمعُ ذلك كلَّه؟ تقولُ: اللهمَّ إنَّا نسألُكَ مِن[٢] خيرِ ما سألكَ منه نبيُّك محمَّدٌ ﷺ، ونعوذُ بك مِن شرِّ ما استعاذَ[٣] منه نبيُّكَ محمَّدٌ ﷺ، وأنت المُستعانُ وعليك البَلاغُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[٤].

وسَمِعَ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ ابناً له يَدْعو يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ ونعيمَها وإستبرقَها، ونحواً مِن هذا...، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وسلاسلِها وأغلالِها، فقال: لقد سألتَ اللهَ خيراً كثيراً، وتعوَّذْتَ باللهِ مِن شرٍّ كثيرٍ، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّه سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدُّعاءِ، وقرأَ هذه الآيةَ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وإنَّ بحَسْبِكَ أن تقولَ: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعَمَلٍ، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعَمَلٍ». خرَّجَه الإمامُ أحمدُ[٥].

وخرَّج الطَّبرانيُّ وغيرُه مِن حديثِ أمِّ سَلمةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ في دُعاءٍ له

---

(١) وأخرج نحوه الطيالسي (١٦٧٤).

(٢) في (م) و(س): «إني أسألك خيرَ».

(٣) في (م) و(س): «استعاذك».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٢١)، وقال: «حسن غريب».

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٤٨٣) وفيه: «من قول أو عمل».

طويلٍ: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ فواتحَ الخيرِ وخواتِمَه، وجوامِعَه، وأوَّلَه وآخرَهُ، وظاهرَهُ وباطنَه»[١].

وخرَّج أبو داودَ مِن حديثِ عائشةَ قالت: كان النَّبيُّ ﷺ يُعجِبُه الجوامعُ مِن الدُّعاءِ ويدَعُ ما بين ذلك[٢].

* * *

قولُه ﷺ: «وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ إنَّكَ أنتَ علَّامُ الغُيوب»:

ختمَ الدُّعاءَ بالاستغفارِ فإنَّهُ خاتمةُ الأعمالِ الصَّالحةِ.

وقولُه: «وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ» يشمَلُ[٣] جميعَ ما يجِبُ الاستغفارُ منه مِن ذنوبِ العبدِ.

وقد لا يكونُ العبدُ عالِماً بذلك كلِّه فإنَّ مِن الذُّنوبِ ما لا يشعرُ العبدُ[٤] بأنَّه ذنبٌ بالكُلِّيَّةِ، كما في الحديثِ المرفوعِ: «الشِّركُ أخفى في هذه الأمَّةِ مِن دبيبِ النَّمْلِ على الصَّفا» قالوا: فكيف نقولُ يا رسولَ الله! قال: «قولوا: اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك أن نُشرِكَ بك ونحن نعلَمُ، ونستغفِرُك لِمَا لا نعلَمُ»[٥].

وكان النَّبيُّ ﷺ يقولُ في دُعائِه: «اللهمَّ اغفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرْتُ، وما

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٧)، وفي «الدعاء» (١٤٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٧)، ولفظه: «يستحب الجوامع».

(٣) «يشمل»: سقط من (م) و(س).

(٤) في (ف) «العبد به بأنه».

(٥) روي هذا المعنى عن عدد من الصحابة، ومن ذلك حديث أبي موسى رضي الله عنه. أخرجه الإمام أحمد (١٩٦٠٦).

أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إله إلا أنت»[١].

ومِن الذُّنوبِ ما ينساه العبدُ ولا يَذكُرُه وقتَ الاستغفارِ، فيحتاجُ العبدُ إلى استغفارٍ عامٍّ مِن جميعِ ذنوبِه، ما عَلِمَ منها وما لم يعلَم، والكلُّ قد عَلِمَه اللهُ وأحصاه، فلهذا قال: «وأستغفِرُك لِمَا تعلَمُ إنَّك أنتَ علَّام الغُيوبِ».

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قال إبراهيمُ التَّيميُّ: لَأنا على ذنوبي التي لا أذكرُها أخوَفُ منِّي على الذُّنوبِ التي أذكرُها، لأنِّي أستغفِرُ اللهَ مِن التي أذكرُها[٢].

مَن أهمَّتْه ذنوبُه صارَت نصبَ عينيه ولم ينسَها، ومَن لم تُهمَّه ذنوبُه هانت عليه فنَسِيَها فلم يَذكُرها إلى[٣] يومِ يتذكرُ الإنسانُ[٤] وأنَّى له الذِّكرى!

إذا نُشِرَ ديوانُ السَّيِّئاتِ ضجَّ أربابُ الجرائمِ مِن صِغارِها قبلَ كبارِها، ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال ابنُ مسعودٍ: إنَّ المؤمنَ يرى ذنوبَه كأنَّه في أصلِ جبلٍ يخافُ أن يقعَ عليه، وإنَّ الفاجرَ يرى ذنوبَه كذبابٍ طارَ على أنفِه فقالَ به هكذا[٥].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه (٢٧١٩)، ومن حديث علي رضي الله عنه (٧٧١).

(٢) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٣) في (س): «إلا».

(٤) في (ف): «يتذكر الإنسان ما سعى». سبق قلم.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٢٧)، والترمذي (٢٤٩٧)، وقال: «حسن صحيح».

قال عونُ بنُ عبدِ اللهِ: جرائمُ التَّائبين مَنصوبةٌ بالنَّدامةِ نصبَ أعينِهم، لا تَقَرُّ للتَّائبِ في الدُّنيا عينٌ كلَّما ذكرَ ما اجترحَ على نفسِه(١).

قال الفُضَيلُ: بقدرِ ما يصغرُ الذَّنبُ عندك يعظُمُ عندَ اللهِ، وبقدرِ ما يعظمُ عندكَ يَصغرُ عندَ اللهِ(٢).

قال كعبٌ: إنَّ العبدَ ليعمَلُ الذَّنبَ الصَّغيرَ فيحتقرُه(٣)، ولا يندمُ عليه، ولا يستغفرُ اللهَ منه، فيعظمُ عندَ اللهِ، حتَّى يكونَ مثل الطَّودِ، ويعملُ الذَّنبَ العظيمَ فيندمُ عليه، ويستغفرُ منه، فيصغرُ عندَ اللهِ حتَّى يغفرَ له(٤)(٥).

قال: وأصابَ رجلٌ ذنباً فحَزِنَ عليه، فجعلَ يجيءُ ويذهَبُ ويقولُ: بم أرضي ربي؟ فكُتِبَ صِدِّيقاً(٦).

قال أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ: إنَّ الرَّجُلَ ليعمَلُ بالمُحقَّراتِ حتَّى يأتي اللهَ، وقد أحطنَ به، ويعمَلُ بالسَّيِّئةِ، فَيَفْرَقُ منها حتى يأتي اللهَ آمناً(٧).

قال بعضُ السَّلَفِ: إنَّ الرَّجُلَ لَتُعرَضُ عليه ذنوبُه يومَ القيامةِ، فيَرى ذنباً فيقولُ: أما إنِّي كنتُ مُشفِقاً منك فيغفرُ له(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٤)، ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٥١).

(٣) في (ف): «يحتقره».

(٤) في (س): «يغفره».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٠٧)، ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٥٠).

(٦) أخرجه الختلي في «الديباج» (١٠٥)، وابن أبي الدنيا ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٦١).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٠٨).

(٨) هو من كلام عروة بن عامر رضي الله عنه. أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦١) (١٣٦٢)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٥٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٣٦٥)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٠٥).

وقال بعضُهم: كفاك همُّكَ بذنبِكَ مِن توبَتِك إقلاعاً وإنابةً[١].

قال الأوزاعيُّ: كان يقالُ: مِن الكبائرِ أن تعملَ الذَّنبَ فتحتقِرَه[٢][٣].

ومن هنا قال بعضُهم: لا تنظُرْ إلى صِغَرِ الخطيئةِ ولكن انظُرْ مَن عصيتَ[٤].

وقال أويسٌ لهَرِم بنِ حيَّان: لا تنظُرْ إلى صِغَرِ ذنبِك ولكن انظُر مَن عصَيْتَ، فإن صغَّرْتَ ذنبكَ فقد صغَّرْتَ اللهَ، وإن عظَّمْتَ ذنبكَ فقد عظَّمْتَ اللهَ[٥].

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ: مَن ذكرَ خطيئةً عَمِلَها، فوجلَ قلبُه منها، فاستغفرَ اللهَ منها لم يحبسها شيءٌ حتى يمحوَها عند الرَّحمنِ[٦].

قال الفضيلُ في قولِه تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] قال: هو الرَّجلُ يذكرُ ذنوبَه في الخلاءِ فيستغفرُ اللهَ منها[٧].

كان السَّلفُ لقِلَّةِ ذُنوبِهم يعدُّونَها.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣٦) من كلام مُكرم الأزدي من عُبّاد أهل الجزيرة.

(٢) في (س): «فتحقره».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٦٧٥٢ ـ ٦٧٥٣).

(٤) من كلام بلال بن سعد. أخرجه عنه ابن المبارك في «الزهد» (٧١)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (ص: ٣٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٣). وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٥٩).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٤٤٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١١٧) ولفظه: «حتى يمحاها».
وأخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢١٥) ولفظه «حتى تمحى». وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١٤) بمثل لفظ ابن أبي الدنيا وعزاه للطبراني، وذكره أيضاً (١/ ٤٥١) بلفظ «حتى يمحوها عنه الرحمن».

(٧) لم أجده عن الفضيل، وإنما هو عن مجاهد أخرجه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٣٢٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٥٧)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٦١٤٥) عن مجاهد عن عبيد بن عمير، وأخرجه هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٥٨) من وجه آخر عن عبيد بن عمير.

قال رياحٌ القيسيُّ: لي نيِّفٌ وأربعون ذنبًا، قد استغفرتُ لكلِّ ذنبٍ مئةَ ألفِ مرَّةٍ[١].

رَكِبَ ابنَ سيرين الدَّيْنُ فقال: هذا بذنبٍ أذنَبْتُه منذُ أربعين سنةً، قلتُ لرَجُلٍ: يا مُفلِس!.

فذُكِرَ ذلك لأبي سليمان، فقال: قلَّتْ ذنوبُهم، فعَرَفوا مِن أين أُتُوا، وكَثُرت ذنوبُنا فلم نعرِفْ مِن أينَ نُؤتى[٢].

كان مَعروفٌ الكرخيُّ رحمه الله يُنشِدُ:

أيَّ شيءٍ تريدُ مِنِّي الذُّنوبُ ... شُغِلَت بي فليس عنِّي تغيبُ

ما يَضُرُّ الذُّنوبَ لو أعتقَتْني ... رحمةً لي فقد عَلَاني المَشيبُ[٣]

ما للمُذنبين أحدٌ يرجعونَ إليه غيرُ اللهِ، وإلى ذلك أشارَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ما يأمُلُ الخطَّاؤون إلَّا رحمةَ[٤] مَن أسبلَ على خطاياهُم ذيلَ الكرمِ، فسترها لولا أنَّ حلمَه وسعَ الخَلْقَ لهلَكُوا.

قال هارونُ بنُ رئابٍ: حملةُ العرشِ أربعةٌ، يَتجاوبونَ بالتَّسبيحِ[٥]. يقولُ اثنانِ مِنهم: سُبحانك وبحمدِك على حلمِك بعدَ علمِك، ويقولُ الآخرانِ: سُبحانك وبحمدِك على عفوِك بعد قُدرَتِك، لِمَا يرَوْنَ مِن ذنوبِ بني آدمَ[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٥٤٥)، ومن وجه آخر (٥٣/ ٢٢٦).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٤٧٠).

(٤) في (ف): «رحمة الله».

(٥) في (س): «التسبيح».

(٦) هكذا في جميع نسخنا «حملة العرش أربعة»! وفي المصادر: «ثمانية». =

قال محمَّدُ بنُ النَّضْرِ الحارثيُّ: أَصبْتُ في بعضِ الكتبِ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ابنَ آدمَ! لو يعلمُ[١] النَّاسُ منك ما أعلَمُ لَنبذوكَ، فقد سَتَرتُ عليك وغفَرْتُ لك على ما كان مِنك ما لم تُشرِك بي شيئاً[٢].

وفي «الصَّحيحينِ»: عن ابنِ عُمرَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يدعو بالعبدِ يومَ القيامةِ، فيضَعُ عليه كَنَفَه فيُقرِّرُه بذُنوبِه فيقولُ: أتذكرُ ذنبَ كذا؟ أتذكرُ ذنبَ كذا؟ فلا يزالُ يُقرِّرُه، حتَّى إذا رأى أنَّه هلكَ قالَ له: إنِّي قد سَتَرتُها[٣] عليك في الدُّنيا وأنا أغفِرُها لك اليومَ»[٤].

وفي روايةٍ: «يأتي اللهُ يومَ القيامةِ بالمؤمنِ فيُقرِّبُه حتَّى يجعلَهُ في حِجابِه مِن جميعِ الخلقِ، فيقولُ له: اقرأ، فيُعَرِّفُه ذنباً ذنباً، أتعرِفُ أتعرفُ؟ فيقولُ: نعم نعم، ثمَّ يلتفِتُ العبدُ يَمْنةً ويَسْرةً فيقولُ اللهُ: لا بأس عليك يا عبدي، أنت في ستري مِن جميعِ خَلقِي، ليس بيني وبينكَ اليومَ أحدٌ يطَّلِعُ على ذُنوبِك غيري، اذهب فقَدْ غفَرْتُها لك اليومَ بحرفٍ واحدٍ مِن جميعِ ما أتيتَني به، قال: ما هو يا ربِّ؟ قال: كنتَ لا تَرْجو العفوَ[٥] .....

= أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٤٨١)، والدينوري في «المجالسة» (٢٤٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٥٨) من كلام هارون بن رئاب.
وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٣١٤)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٧٤٤) من طريق آخر عن هارون بن رئاب عن شهر بن حوشب.

(١) في (ت) و(ف): «عَلِمَ».

(٢) أخرجه بنحوه: عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (٤٤١)، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٢١). وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٢٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٦٦٢).
وبهذا اللفظ أخرجه أبو بكر المروذي في «أخبار الشيوخ وأخلاقهم» (٣٥٣).

(٣) في (م) و(س): «إني سترتها».

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤١، ٤٦٨٥، ٦٠٧٠، ٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨)، بألفاظ مقاربة.

(٥) في (س): «عفواً».

مِن أحدٍ غيري»[١].

إخواني هَب أنَّه تجاوزَ عن الزَّلَلِ، فأين ما يلقاه العاصي عند تقريرِه بذُنوبِه مِن الحَياءِ والخَجَل؟ العارِفونَ يشتَدُّ قَلَقُهم مِن الحياءِ مِن اللهِ عند الوُقوفِ بين يديه.

قال بعضُهم: ما يمرُّ بي أشَدُّ من الحياءِ مِن الله[٢].

وكان الفُضَيلُ يقول: واسوأتاه منكَ وإن عَفَوْتَ[٣][٤].

وقال غيرُه: لو خُيِّرْتُ بين أن أُبعَثَ، فأوقَفَ بين يديه ثمَّ يأمُرُ بي إلى الجنَّةِ، وبين أن لا أبعثَ، لاخترتُ أن لا أُبعثَ ولا أريدُ الجنَّةَ[٥].

وقال آخرُ: لو أمر بي من الموقفِ إلى النَّارِ لكان أهونَ عليَّ مِن أن يَقِفَني بين يديه[٦] ثمَّ يأمُرَ بي إلى الجنَّةِ[٧].

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: يُدني اللهُ العبدَ يومَ القيامةِ، فيضَعُ عليه كنفَهُ فيسترُه مِن الخلائقِ كلِّها، ويدفَعُ إليه كتابَه في ذلك السترِ، فيقولُ: اقرأ يا ابنَ آدمَ كتابَك، فيقرأُ فيَمُرُّ بالحسنةِ فيَبْيَضُّ لها وجهُه ويُسَرُّ بها قلبُه، فيقولُ اللهُ: أتعرِفُ يا عبدي، فيقولُ: نعم، فيقولُ: إنِّي قَبِلْتُها منك، فيَسجدُ، فيقولُ: ارفَع رأسَك، وعُدْ في كتابِكَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٧٢٨) من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨٦) من كلام إسماعيل بن داود المسحلي رحمه الله.

(٣) في (س): «غفرت».

(٤) ذكره ابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» (ص: ١٩١)، ونقل أيضاً عن غير عياض عند ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٨٨).

(٥) ذكره المصنف عن الفضيل أيضاً في «استنشاق نسيم الأنس» في الباب العاشر. وهو مما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٤).

(٦) هنا آخر نسخة (م) وما بعده مخروم منها. وهي بخط أحمد بن محمد بن خضر القطان النجاد الحنبلي.

(٧) ذكره المصنف رحمه الله عن بعض التابعين في «استنشاق نسيم الأنس» الباب العاشر. ولم أجده عند غيره.

فيَمُرُّ بالسَّيِّئةِ فيَسوَدُّ لها وَجهُه ويَوْجَلُ منها قلبُه وترتعدُ[١] منها فَرائصُه، ويأخذُه مِن الحياءِ مِن رَبِّه ما لا يَعلَمُه غيرُه، فيقولُ: أتعرِفُ يا عبدي، فيقول: نعم يا رب أعرِفُ، فيقولُ: إنِّي قد غَفَرتُها لك، فيَسجدُ فلا يَرَى منه الخلائقُ إلَّا السُّجودَ، حتَّى ينادي بعضُهم بعضاً[٢]: طوبى لهذا العبدِ الذي لم يعصِ اللهَ قطُّ، ولا يدرون ما قد لَقِيَ فيما بينَه وبين اللهِ عزَّ وجلَّ فيما قد وَقَفه عليه[٣].

أستغفِرُ اللهَ ممَّا يعلَمُ اللهُ ... إنَّ الشَّقِيَّ لَمَنْ لا يرحَمُ اللهُ

هَبْهُ تجاوزَ لي عن كلِّ مَظْلَمَةٍ ... يا سَوْأتا مِن حَيائي يومَ ألقاهُ

ما أَحْلَمَ اللهَ عمَّن لا يُراقِبُه ... كلٌّ مُسيءٌ ولكن يحلُمُ اللهُ

فاستغفِرِ اللهَ ممَّا[٤] كان مِن زلَلٍ ... طُوبى لِمَن كفَّ عمَّا يكرَهُ اللهُ

طوبى لِمَن حَسُنَت منه[٥] سَريرَتُه ... طوبى لِمَن يَنتهي عمَّا نهى اللهُ[٦]

تمَّ والحمدُ للهِ وحدَه[٧]

---

(١) في (س): «وترعد».

(٢) في (ت) و(ف): «لبعض».

(٣) في (س): «وقفه الله عليه». والأثر أخرجه الختلي في «الديباج» (٩)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٩٦٦)، وابن أبي الدنيا، ولفظه أقرب إلى لفظ المصنف، أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٠/ ٤٣).

(٤) في (س): «استغفر الله ما»، وفي (ت) و(ف): «فاستغفروا»، والمثبت من المصادر.

(٥) في (س): «أيضاً».

(٦) البيتان الأولان لإبراهيم بن محمد ـ نفطويه ـ أنشدها له: الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٩٥)، والسلفي في «الطيوريات» (٦٩٧)، وابن الجوزي في «المنتظم» (١٣/ ٣٥١)، وذكرتهما له كثير من كتب التراجم للأدباء. والأبيات الثلاثة الباقية من قصيدة لأبي القاسم محمد بن خلاد البصري أنشدها له: ابن مسلمة في «المشيخة البغدادية» (ص: ١٨٥). وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤١٦).

(٧) في (س): «آخر الكلام على الحديث، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. تم بقلم كاتبه لنفسه عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة الربيعي غفر الله له ولوالديه والمسلمين أجمعين، وذلك في يوم ٢٢ محرم سنة ١٣٣٤». وفي الحاشية «بلغ».